

المكتبة الصوفية

عوارف المعاني

للسهروردي

(الكتاب سنة ١٢٣٢ هـ)

تحقيق ومضبط

أ.د/ أحمد عبد الرحيم الساجي المستشار/ توفيق علي دة

المجلد الثاني

الناشر

مكتبة اشراق الدمشقية



المكتبة الصوفية

عوارف المعاني

للسَّهْرَوْدِيَّ

(المتوفى سنة ٦٣٢هـ)

كتابخانه
مرکز تحقیقات کلام و ترویج علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۰۶۸۸۰
تاریخ ثبت:

تحقیق و ضبط

أ.د/ أحمد عبد الرهيم الساج المستشار/ توفيق علي وهبة

المجلد الثاني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت. ٥٩٢٣٦٢٠ - ٥٩٢٨٤١١ / فاكس ٥٩٢٦٣٧٠

ص.ب ٢١ توزع الظاهر - القاهرة

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com

٢٠٠٦/٥٦٠٤	رقم الإيداع
977-341-264-4	الترقيم الدولي I.S.B.N.

الباب الثاني والثلاثون في آداب الحضرة الإلهية

يكل الآداب تتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه عليه السلام مجمع الآداب
ظاهرا وباطنا.

وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (١).

وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ.

أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه القلنس في الإعراض والإقبال، أعرض
عما سوى الله، وتوجه إلى الله وترك وراء ظهره الأرضيين والدار العاجلة
بمحظوظها، والسموات والدار الآخرة بمحظوظها.

فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الغائب في
إعراضه، قال الله تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ (٢).

فهذا الخطاب للعموم، وما زاغ البصر إخبار عن حال النبي عليه السلام
بوصف خاص من معنى ما خاب به العموم.

فكان ما زاغ البصر حاله في طرف الإعراض، وفي طرف الإقبال تلقى
ما ورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب.

ثم هر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا، وطوى نفسه بفراره في
مطاوى انكساره والافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى.

فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس، قال الله تعالى: ﴿ كُلًّا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِئٌ ﴾ (٣) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٤).

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٢.

(٣) سورة العلق، الآيات ٦-٧.

والنفس عند الواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطاً من النج استغنت وطفئت، والطاقيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط في البسط يسد باب الزيد، وطاقيان النفس لضيق وعانها عن الواهب.

فموسى عليه السلام صح له في الحضرة أحد طرفي ما زاع البصر، وما التفت إلى ما فاتته، وما طغى متأسفا لحسن انبه، ولكن امتلا من النج، واسترقت النفس السمع، وتطلعت إلى القسط والحظ.

فلما حظيت النفس استغنت، وطفح عليها ما وصل إليها، وضاق نطاقها، فتجاوز الحد من فرط البسط، وقال: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(١). فمنع ولم يطلق في قضاء الزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام.

وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية، فكل قبض يوجد عقوبة، لأن لكل قبض سد في وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجب من الإفراط في البسط.

ولو حصل الاعتدال في البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال في البسط بإيقاف النازل من النج على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبي عليه السلام من تغييب النفس في مطاوى الانكسار.

فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حظى به رسول الله ﷺ، فما قوبل بالقبض، فدام مزيده وكان قلب قوسين أو لحنى.

ويشاكل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٢.

(٢) سورة النجم، الآية ١٧.

قال: لم يره بطغيان يميل بل رآه على شروط اعتلال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التستري: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها، وإنما مكان مشاهدتها بكليته لربه، يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك الحل.

وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز في ذلك عن سهل ابن عبد الله.

ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة قال: أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن علي السراج قال أنا أبو الطيب العكي عن أبي محمد الحريري.

قال: التسرع إلى استدراك علم الانقطاع وسبلة، والوقوف على أحد الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم النخو وصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم في حيز الإقبال مساءة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بعد، والاستسلام عند التلاقي جراءة، والانبساط في محل الأنس غرة. وهذه الكلمات كلها من أدب الحضرة لأربابها.

وهي قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(١).

وجه آخر اللفظ مما سبق (ما زاغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصر البصيرة، فيتجاوز حده، ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، الظاهر مع الباطن، والقلب مع القالب، والنظر مع القدم.

ففى تقدم النظر على القدم طغيان، وللعنى بالنظر علم، وبالقدم حال
القلب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا، ولم يتخلف القدم عن
النظر فيكون تقصيرا.

فلما اعتدلت الأحوال، صار قلبه كقلبه، وقالبه كقلبه، وظاهره
كباطنه، وباطنه كظاهرة، وبصره كبصيرته، فحيث انتهى نظره
وعلمه قارنه قدمه وحاله، ولهذا العنى انعكس حكم معناه، ونوره على
ظاهرة، واتى اليراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره، لا يتخلف قدم اليراق
عن موضع نظره.

كما جاء فى حديث للعراج، فكان اليراق بقلبه مشاكلا لمعناه،
ومتصفا بصفته، لقوة حاله ومعناه.

وأشار فى حديث للعراج إلى مقامات الأنبياء، ورأى فى كل سماء بعض
الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى بعض
السموات، فمن هو فى بعض السموات يكون قوله: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(١).

تجاوزا للنظر عن حد القدم، وتخلفا للقدم عن النظر، وهذا هو
الإخلال باحد الوصفين من قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾^(٢).

فرسول الله حمل مقرنا قدمه ونظره فى حبال الحياء والتواضع
ناظرا إلى قدمه، قادمنا على نظره، ولو خرج عن حبال الحياء والتواضع،
وتطاول بالنظر متعديا حد القدم، تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره
من الأنبياء، فلم يزل ﷺ متجلسا بحباله فى خفارة لب حاله.

حتى خرق حجب السموات، فأنصبت إليه أقسام القرب انصبايا،
وانقشعت عنه سحائب الحجب جحبا جحبا، حتى استقام على

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٢.

(٢) سورة النجم، الآية ١٧.

صراط: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾^(١). فهو كالحرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف، وهذا غاية في الأدب، ونهاية في الأرب.

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب السافر فقال: لا يجاوز همه قدمه، فحيث وقف قلبه يكون مقره.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال: أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال حدثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي قال حدثنا محمد بن رزام الأبلج قال حدثنا محمد بن عطاء الهجيمي قال حدثنا محمد بن نصر عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾^(٢).

قال: «يا موسى إنه لا يراني حتى إلا مات» ولا يابس إلى تدهدهم، ولا رطب إلى تفرق، إنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم».

ومن أدب الحضرة ما قال الشبلي: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب. وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق.

لأن الله تعالى أمر بالدعاء وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط في طلب النار والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاماً في القرب، وأذن له في الانبساط وقال: اطلب مني ولو ملحاً لعجبتك، فلما بسط وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(٣).

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

(٣) سورة القصص، الآية ٢٤.

لأنه كان يسأل حوائج الآخرة، ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها، وهو في حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات.

ولهذا مثال في الشاهد. فإن الملك العظيم يسأل للعضيمات، ويحتشم في طلب المحقرات، فلما رفع بساط حجاب الحشمة، صار في مقام خاص من القرب، يسأل الخطير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصري: أدب العارف فوق كل أدب، لأن معروفيه مؤدب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: من ألزمته القيامة مع اسمائي وصفائي ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب.

وقول القائل هذا يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب، لبقاء رسوم البشرية وحفظ النفس، ومع إمان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار، ويكون معنى العطب التحقق بالفناء، وفي ذلك العطب نهاية الأرب.

وقال أبو علي النخاق في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١). لم يقل أرحمني لأنه حفظ أدب الخطاب.

وقال عيسى عليه السلام: «إن كنت قلته فقد علمته» ولم يقل لم أقل رعاية لأدب الحضرة.

وقال أبو نصر السراج: أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى

الخواطر والعوارض والبوايدى والعوائق، واستواء السر والعلانية، وحسن الأدب
 هي مواقف الطلب، ومقامات القرب، وأوقات الحضور.

والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل. فمن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله
 منحه محبة القلوب.

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.
 وقال أيضا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف.

وقال النووي: من لم يتأدب للوقت هو قته مقت.

وقال ذو النون: إذا خرج للريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من
 حيث جاء.

وقال ابن المبارك أيضا: قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول هو
 معرفة النفس. وهذه إشارة منه إلى أن النفس هي منبع الجهالات. وترك
 الأدب من مخامرة الجهل.

فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد «من عرف نفسه
 فقد عرف ربه» ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح
 العلم.

وحيث يتأدب ومن قام بأدب الحضرة فهو غيرها أقوم وعليها القدر.

الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى هي وصف أصحاب الصفة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ تُحِبُّونَ أَنْ
يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١).

قيل في التفسير: يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنائيات
والنجاسات بالماء.

قال الكلبي: هو غسل الأذبار بالماء.

وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء، ولا ينامون بالليل على الجنابة.

روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية: «إن الله تعالى
قد أتى عليكم في الطهور فما هو؟ قالوا إنا نستنجي بالماء».

وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله ﷺ «إذا أتى أحدكم الخلاء
فليستنج بثلاثة أحجار».

وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء.

قيل لسلمان: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

فقال سلمان: أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو نستنجي
باليمن، أو يستنجي أحدهما بأقل من ثلاثة أحجار، أو نستنجي برجبع أو
عظم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إسماعيل قال أنا أبو منصور
الحريمي قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهشمي قال أنا أبو علي
الولوف قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا ابن المبارك

عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ «إنما أنا بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستنبرها، ولا يستطيب يمينه».

وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة.

والفرض في الاستنجاء شيان: إزالة الخبث، وطهارة الذيل، وهو ألا يكون رجبيا وهو الروث، ولا مستعملا مرة أخرى، ولا رمة، وهي عظم اللبنة. ووتر الاستنجاء سنة، فإذا ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع، واستعمال الماء بعد الحجر سنة.

وقد قيل في الآية: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾^(١).

ونما سئلوا عن ذلك قالوا: كنا نتبع الماء الحجر.

والاستنجاء بالشمال سنة، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترابا طاهرا.

وكيفية الاستنجاء أن يأخذ بيساره ويضعه على مقدم الخرج قبل ملاقاته النجاسة ويمره بالسج، وينير الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع.

يفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر الخرج، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح إلى القدمة، ويأخذ الثالث وينيره حول السرية. وإن استجمر بحجر ذي ثلاث شعب جاز.

وأما الاستبراء إذا انقطع البول فبعد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة يرفق ثلاثا ينطق بقية البول، ثم ينثره ثلاثا، ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحج ثلاثا، لأن لعروق ممتدة من الحلق إلى الذكور.

وبالتنحنج تتحرك وتقلب ما هي مجرى البول، فإن مشى خطوات وزاد في التنحنج فلا بأس، ولكن يراعى حد العلم، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضي الوقت، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن يرى الرطوبة.

وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال: لا يزال تهر منه الرطوبة مادام يمد، فيراعى الحد في ذلك، ويراعى التوتر في ذلك أيضا.

والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر، وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر، وتكون الحركة باليسار لا باليمين لأنلا يكون مستنجبا باليمين.

وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر وينقع الحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة.

وهي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد ورد فيها رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما هنا فكان لا يستبرئ من البول، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة. ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

والسبب الجريد. وإذا كان في الصحراء يبعد عن العيون.

روى جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى الخيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في الذهب.

وروى أن النبي عليه السلام كان يتبوا لحاجته كما يتبوا الرجل للنزل، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض، أو يكوم من الحجارة.

ويجوز أن يستتر الرجل بهراجلته في الصحراء أو بذيبله إذا حفظ الثوب من الرشاش.

ويستحب البول في أرض دمتة، أو على تراب مهبل.

قال أبو موسى: كنت مع رسول الله ﷺ فإراد أن يبول، فأتى دمتا في أصل جدار فبال ثم قال: «إذا أرد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله».

وينبغي ألا يستقبل القبلة ولا يستنبرها، ولا يستقبل الشمس والقمر، ولا يكره استقبال القبلة في البنيان، والأول اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك في البنيان أيضا، ولا يرفع ثوبه حتى يبتعد من الأرض، ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش.

قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه: لا أحسبك تحسن الخراءة، فقال بلى وأبيك أنى بها لحادق. قال فصفا لي.

فقال أبعد الشر، وأعد الدر، واستقبل الشيخ، واستنبر الريح، وأقمى الإقعاء الخلبى، وأجفل إجمال النعام، يعنى استقبال أصول النبات من الشيخ وغيره، واستنبر الريح احترازا من الرشاش والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قنميه، والإجمال أن يرفع عجزه.

يقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وظهر قلبى من الرياء، وحصن فرجى من الفواحش.

ويكره أن يبول الرجل في القنصل.

روى عبد الله بن مغفل أن النبى عليه السلام نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال: «إن عامة الموسوس منه».

وقال ابن المبارك: يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء.

وإذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل الدخول: بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث.

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النحيب السهروردي قال أنا أبو منصور القرى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمي قال أنا أبو علي اللؤلؤي قال أنا أبو داود قال حدثنا عمر وهو ابن مرزوق البصري قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال: «(إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث)».

وأراد بالحشوش الكنف. وأصل الحش جماعة النخل الكثيف، وكانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت. وقوله محتضرة أي يحصرها الشياطين.

وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى، ولا يتولى بهنه، ولا يخط الأرض والحائط وقت قعوده، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك، ولا يتكلم، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «(لا يخرج الرجلان يضربان الحائط كاشفين عورتيهما يتحدخان، فإن الله تعالى يمقت على ذلك)».

ويقول عند خروجه: غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى على ما ينفعني».

ولا يستصعب معه شيئاً عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره، ولا يدخل حاسر الرأس.

روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر ﷺ أنه قال: استحبوا من الله فإني لأدخل الكنيف فالزق ظهري وأعطى رأسي استحياء من ربي عز وجل.

الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء ببغدي بالسواك.

حدثنا شيخنا أبو النجيب قال أنا أبو عبد الله الطائفي قال أنا الحافظ
القراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد اللبكي قال أنا أبو منصور محمد بن
أحمد ابن عبد الجبار قال أنا حميد بن زنجويه قال أنا علي بن عبيد قال
أنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن
عن زيد بن خالد الجهني قال، قال رسول الله ﷺ، «لولا أن أشق على أمتي
لأخبرت العشاء إلى ثلث الليل، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة».

وروت عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال، «السواك
مطهرة للفم، مرضاة للرب».

ويستحب السواك عند كل صلاة، وعند كل وضوء، وكلما تغير
الفم من أزم وغيره، وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض، وقيل
للسكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم، ويكره للصائم بعد
الزوال.

ويستحب له قبل الزوال. وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة، وعند
القيام من الليل. ويندي السواك اليابس بالاء. وبساتك عرضاً وطولاً، فإن
اقتصر فعرضاً.

فإذا فرغ من السواك بفعله ويجلس للوضوء. والأولى أن يكون مستقبل
القبلة، ويبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول، رب أعوذ بك من همزات
الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

ويقول عند غسل اليد، اللهم اني اسالك اليمن والبركة واعوذ بك من التؤم والهلكة ويقول عند الضمضة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك.

ويقول عند الاستنشاق، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واوجلي رائحة الجنة وانت عني راض.

ويقول عند الاستنثار، اللهم صل على محمد وعلى أهل محمد، واعوذ بك من روائح النار سواء الدار.

ويقول عند غسل الوجه، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وببيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك.

وعند غسل اليمنين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي بيمينى وحاسبني حسابا يسرا.

وعند غسل الشمال: اللهم اني اعوذ بك ان تؤتيني كتابي بشمالى أو من وراء ظهري.

وعند مسح الرأس، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وعشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك.

ويقول عند مسح الأذنين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيتبع احسنه، اللهم اسمعني منادى الجسة مع الأبرار.

ويقول في مسح العنق: اللهم فك رقبتى من النار، واعوذ بك من السلاسل والأغلال.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند غسل قدمه اليمنى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين.

ويقول عند اليسرى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، واعوذ بك أن تنزل قدمي عن الصراط يوم تنزل فيه أقدام المنافقين.

وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوء وظلمت نفسي، استغفرك وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك كثيرا واسبحك بكرة وأصيلا.

وهذا من الوضوء: النية عند غسل الوجه، وشد الوجه تستطيع الوجه إلى منتهى الذقن. وما ظهر من اللحية، وما ترسل منها، من مبتلى ومن الأذن عرضا، ويدخل في الغسل البياض الذي بين الأذنين واللحية، وموضع الصلع، وما انحسر عنه الشعر، وهما النزعتان من الرأس.

ويستحب غسلهما مع الوجه، ويوصل الماء إلى شعر الخفيف، وهو القدر الذي يزيله النساء من الوجه، ويوصل الماء إلى العنقفة والشارب والحاجب والعدار، وما عدا ذلك لا يجب، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة.

وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته، وإن كانت كثيفة فلا يجب، ويجتهد في تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين.

الواجب الثالث: غسل اليدين إلى المرفقي، ويجب إدخال المرفقين في الغسل، ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين، وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رموس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح.

الواجب الرابع: مسح الرأس ويكفي ما يطلق عليه اسم المسح، ويستحب مسح الرأس بالمسح سنة، وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدم الرأس، ويمدهما إلى القفا، ثم يردهما إلى الوضع الذي بدأ منه، وينصف بلل الكفين مستقبلاً ومستقبلاً.

الواجب الخامس: غسل القدمين، ويجب إدخال الكعبين في الغسل، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين، ويقنع غسل القدمين من الكعبين، ويجب تخليل الأصابع للشفة، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم، ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى.

وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها، وإن ترك فيها عجيناً أو شحماً يجب إزالة عين ذلك الشيء.

الواجب السادس: الترتيب على النسق المذكور في كلام الله تعالى.

الواجب السابع: التتابع في القول القديم عند الشافعي رحمه الله تعالى. وحدث التفريق الذي يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء.

وسنن الوضوء ثلاثة عشر، التسمية في أول الطهارة، وغسل اليدين إلى الكوعين، والضمضة، والاستنشاق، والبالغة فيهما، فيغرغر في الضمضة حتى يرد الماء إلى الفم، ويستند في الاستنشاق الماء بالأنف إلى الخياشيم، ويرفق في ذلك إن كان صائماً.

وتخليل اللحية الكثيفة، وتخليل الأصابع المنفرجة، والبعد باليأس، وإطالة الغرة، واستيعاب الرأس بالمسح، ومسح الأذنين، والتثليث، وهي القول الجديد للتابع. ويجتنب أن يزيد على الثلاث ولا ينفض اليد، ولا يتكلم في أثناء الوضوء، ولا ياطم وجهه بالماء لطما. وتجنب الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر، وإلا فمكروه.

الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام

آدابهم في الوضوء: حضور القلب في غسل الأعضاء.

سمعت بعض الصالحين يقول: إذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة في الصلاة.

ومن آدابهم: استقامة الوضوء سلاح المؤمن. والجوارح إذا كانت في حماية الوضوء الذي هو أكر شرعى يقل طروق الشيطان عليها.

قال عدى بن حاتم، ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء.

وقال انس بن مالك: قدم النبى ﷺ المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فقال لى «يا بنى إن استطعت إلا تزال على الطهارة فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة».

فشان لما قل أن يكون أبدا مستعدا للموت، ومن الاستعداد لزوم الطهارة.

وحكى عن الحصرى أنه قال: مهما انتبه من الليل لا يحملنى النوم إلا بعد ما أقوم وأجند الوضوء لتلا يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة.

وسمعت من صاحب الشيخ على بن الهيثمى أنه كان يقعد الليل جميعه، فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك، وكلما انتبه يقول: لا أكون أسأت الأدب، فيقوم ويجند الوضوء ويصلى ركعتين.

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام قرأني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة».

. قال ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي أبى لم أتطهر طهراً في ساعة ليل أو نهار إلى صليت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي».

ومن آدابهم في الطهارة، ترك الإسراف في الماء، والوقوف على حد العلم.

أخبرنا الشيخ العلامة ضياء الدين بعد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أخيراً أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن بشار.

قال حدثنا أبو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن بن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن مكعب عن النبى ﷺ أنه قال: «للوضوء شيطان يقال له الؤلهان، فابقوا وساوس الماء».

قال أبو عبد الله الروذبارى: إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم، فلا يبالي أن يأخذ نصيباً بأن يزادوا ههنا أمروا به أو ينقصوا عنه.

وحكى عن ابن الكرتي أنه أصابته جنابة ليلة من الليالي، وكانت عليه مرقعة تخينة غليظة، فجهأ إلى الدجلة وكان برد شديد، فحرنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال: عقدت ألا أنزعها من بلنى حتى تجف على.

فمكثت عليه شهراً لنخانتها وغلظها. أحب بذلك نفسه لما حرنت عن الانتمار لأمر الله تعالى.

وقيل، إن سهل بن عبد الله كان يبحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس، وإمالة الشهوات، وكسر القوة.

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء.

قيل: كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء، وربما كان لا يشرب منها إلا القليل، يحفظ الماء للوضوء.

وقيل، إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم، يحفظ الماء للوضوء، ويقنع بالقليل للشرب.

وقيل، إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو مركز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى.

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهرائي جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار، فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا للوضع في وقت يريد تأديب نفسه.

وقيل، مات الخواص في جامع الري في وسط الماء، وذلك أنه كان به علة البطن، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه، فدخله مرة ومات فيه، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة.

وقيل، كان إبراهيم بن أحمد به قيام، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة، كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين.

وقيل، إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلا وقت البراز، يراعى الأدب في الخلوات.

واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا إن الوضوء يوزن.

وأجازه بعضهم، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذی.

قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الوهاب بن وهب عن زيد بن حبان عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خرقعة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء. وروى معاذ بن جبل قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا توضأ مسح وجهه بحرف ثوبه.

واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من الصفات الرديئة والأخلاق الذمومة، لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم.

وتوضأ عمر رضي الله عنه من حجرة نصرانية مع يكون النصراني لا يحترزون عن الخمر، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلون على الأرض من غير سجادة، ويمشون حفاة في الطرق، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين الثوب حائلا.

وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الأوقات. وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التسهل، واستقصاؤهم في الطهارة الباطنة.

وهكذا شغل الصوفية. وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة، ويكون مستندا ذلك رعونة النفس، فلو اتسخ ثوبه تخرج ولا يبالي بما في باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حلقيا مع وجود رخصة الشرع، ولا يفكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرّب بها دينه.

وكل ذلك من فئة العلم وترك التأديب بصحبة الصادقين من العلماء
الراسخين.

وكانوا يكرهون كثرة اللب في الاستمراء، لأنه ربما يسترخي العرق
ولا يمسك البول، ويتولد منه القطر المفرط.

ومن حكاية التصوفة في الوضوء والطهارة، إن أبا عمرو الرحاجي
جاور بمكة ثلاثين سنة، وكان لا يتغوط في الحرم، ويخرج إلى الحل، وأقل
ذلك فرسخ.

وقيل، كان بعضهم على وجه فرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة، لأن
الماء كان يضره، وكان مع ذلك لا يدع تجدد الوضوء عند كل فريضة.

وبعضهم نزل في عينه الماء، فحملوا إليه الدواء، وبذلوا له مالا كثيرا
ليداويه، فقال الداوي يحتاج إلى ترك الوضوء أياما، ويكون مستلقيا على
قفاه، فلم يفعل ذلك، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء.

الباب السادس والثلاثون في فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى جنة عدن، وخلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال لها تكلمي، فقالت: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) فلاذا».

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين.

وقال رسول الله ﷺ: «إنا نرى جبريل نزل على الشمس حين زالت وصلى بي الظهر».

واشتقاق الصلاة قيل في الصلوى وهو النار، والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم. وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء، وسبهات وجه الله الكريم النسي لو كشف حجابها أحرقت من أدميته يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه.

بل يتحقق به معراج. فالصلوى كالصطفى بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم.

أخبرنا الشيخ العالم رضى الله عن أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الحلبي قال أنا أبو سعيد الفرخزادى قال أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن.

قال أنا أبو زكريا يحيى بن محمد بن العنبري قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال حدثنا آدم بن أبي إياس عن ابن

سمعان عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم.

قال الله عز وجل: حمدني عبدي.

فإذا قال الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، فإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى على عبدي، فإذا قال مالك يوم الدين، قال فوض إلى عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال هذا بيني وبين عبدي.

فإذا قال: اهتدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». .

فالصلاة صلة بين الرب والعبد، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعاً لصولة الربوبية على العبودية.

وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلاة في الصلاة تلمح له طوائع التجلي فيخضع. والفلاح للذين هم في صلاتهم خاشعون، وبانتفاء الخشوع ينتفي العلاج.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١). وإذا كانت الصلاة للذكر، فكيف يقع فيها النسيان. قال الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٢).

فمن قال ولا يعلم ما يقول، كيف يصلي وقد نهاه الله عن ذلك، فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل، والغافل يصلي لا بحضور عقل، فهو كالسكران.

(١) سورة طه، الآية ١٤.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٢.

وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى: ﴿قَاخَلَعْ نَعْلَيْكَ^١ بِأَلْوَدِ
الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(١) قيل: نعليك همك بامراتك وغممك، فالاهتمام
بغير الله تعالى سكر في الصلاة.

وقيل: كان اصحاب رسول الله ﷺ يرفحون لبصارهم إلى السماء في
الصلاة، وينظرون يميناً وشمالاً، فلما نزلت ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ﴾^(٢).

جعلوا وجوههم حيث يسجدون، وما روى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا
إلى الأرض.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى
الصلاة فإنه بين يدي الرحمن، فإذا تلفت قال له الرب: إلى من تلفت؟ إلى
من هو خير لك متى؟ ابن آدم أقبل إلى فأما خير لك ممن تلفت إليه».

وابصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال «لو خشع
قلب هذا خشعت جوارحه».

وقد قال رسول الله ﷺ «إذا صليت فصل صلاة مودع».

فالصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه، يودع هواه ودنياه وكل شيء سواه.
والصلاة في اللغة هي الدعاء.

فكان المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه، فصارت أعضاؤه كلها
السنة يدعوا بها ظاهراً وباطناً، ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب
والهينات في تعلقات متضرع سائل محتاج.

فإذا دعا بكلية أجابه موله لأنه وعده فقال: ﴿أَدْعُرْنِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ﴾^(٣).

(١) سورة طه، الآية ١٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢.

كان خالد الربيعي يقول، عجبت لهذه الآية: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط.

والاستجابة والإجابة هي نفوذ دعاء العبد، فإن الداعي الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه، فتخرق الحجب، وتتدفق الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية للحاجة.

وخص الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب، وفيها تقديم الثناء على الدعاء، ليكون أسرع إلى الإجابة، وهي تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء.

وفاتحة الكتاب هي السبع الثاني والقرآن العظيم. قيل، سميت مثنى لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين، مرة بمكة، ومرة بالدينة، وكان لرسول الله ﷺ بكل مرة نزلة منها فهم آخر، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرة يقرأها على التردد مع طول الزمان فهم آخر.

وهكذا المصلون انحفقون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها، وتكشف لهم كل مرة درر بحارها.

وقيل، سميت مثنى لأنها استثنيت من الرسل وهي سبع آيات.

وروت أم رومان قالت، رأي أبي بكر وأنا لتميل في الصلاة فزجرني زجراً كنت أنصرف عن صلاتي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود، فإن سكوت الأطراف من تمام الصلاة».

وقال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البطن ونفاق القلب».

فأما تمثيل اليهود، قيل كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما فى باطنهم، فكان يهين الأمور ويعظمها.

ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يعطى التوراة بالذهب، ووقع لى والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الولد فى صلاته ومحال مناجاته، فيموج به باطنه كبحر ساكن، تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج، فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسيمات القلب.

وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية فتهم الاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج، فيضطرب القلب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهرة فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك.

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكاراً على أهل الوسوسة: «هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه، وإن الرجل على صلاته دائم، ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهياً لاهياً».

وإعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس، وقد قال رسول الله ﷺ: «الصلوة عماد الدين، فمن ترك الصلاة فقد كفر».

فبالصلوة تحقيق العبودية، وإدناء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة.

قال سهل بن عبد الله: يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن، ويحتاج إلى الأدب النوافل، ومن الأدب ترك الدنيا.

والذى ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على النبر: إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقبالها على الله فيها.

وقد ورد في الأخبار، أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه الكريم، وقامت لللائكة من لندن منكبته إلى الهواء يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه.

وإن المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفروق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناحى ما التفت أو ما انفتل.

وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما هرق على أهل السموات، فله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة.

وهكذا في السجود والقيام والقعود، والمبد التيقظ يتصف في ركوعه بصفة الراكعين منهم، وفي السجود بصفة الساجدين، وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم.

وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع، غير مهتم بالرفع منه.

فإن طارفته سامة بحكم الجيلة استغفر منها، ويستديم تلك الهيئة، ويتطلع أن يذوق الحشوع اللائق بهذه الهيئة، ليصير قلبه بلون الهيئة.

وربما يترادى للراكع المحقق أنه إن سبق همه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفي الهيئة حقها، فيكون همه الهيئة، مستغرقا فيها، مشغولا بها عن غيرها من الهيئات فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة.

فإن السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح، ويقف في هاب النفحات الإلهية، حتى يتكامل حظ العبد، فتتمحى آثاره بحسن الاسترسال، ويستقر في مقعد الوصال.

وقيل، هي الصلاة أربع هيئات، وستة أذكار. فالهيئات الأربع: القيام،
والقعود، والركوع، والسجود.

والأذكار الستة: التلاوة، والتسبيح، والحمد، والاستغفار، والدعاء،
والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

فصارت عشرة كاملة، تفرق هذه العشرة على صفوف من الثلاثمائة
مئة كل صف عشرة آلاف فيجتمع في الركعتين ما يفرق على ما ألف من
الثلاثمائة.

الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب

ونذكر في الفصل كيفية الصلاة بهيئاتها وشروطها وأدائها الظاهرة والباطنة على الكمال، بأقصى ما ينتهي إليه فهمنا وعلمنا على الوجه، مع الإعراض عن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك.

إذ في ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز للقصود، فنقول وبالله التوفيق،

ينبغي للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء، ولا يوقع الوضوء في وقت الصلاة، فذلك من المحافظة عليها.

ويحتاج في معرفة الوقت إلى معرفة الزوال، وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره.

ويعتبر الزوال بأن الظل مدام في الانتقاص فهو النصف الأول من النهار، فإذا أخذ الظل في الزيادة فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس.

وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كـم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر. ويحتاج إلى معرفة النازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل، وشرح ذلك بطول ويحتاج أن يفرد له باب.

فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة، ففي ذكر سر، وحكمة ذلك والله أعلم أن العبد تشعث باطنه، وتفرق هممه، لما يلي به من المخالطة من الناس، وقيامه بمهام العاش، أو سهو جري بوضع الجبهة.

أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة.

فإذا قدم السنة بنجنب باطنه إلى الصلاة، وبتنهياً للمناجاة، وينهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكسورة من الباطن، فيتصلح الباطن ويصير مستعداً للفريضة.

فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات، وتطرق النفحات، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل نيب عمله.

ومن الذنوب عامة وخاصة، فالعامة، الكبائر والصغائر مما لومأ إليه الشرع، ونطق به الكتاب والسنة، والخاصة ذنوب حال الشخص، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها. وقيل، حسنات الأبرار سيئات القربين.

ثم لا يصلى إلا جماعة. قال رسول الله ﷺ «تفضل صلاة الجماعة صلاة ألفد بسبع وعشرين درجة».

ثم يستقبل القبلة بظاهره، والحضرة الإلهية باطنه، ويقرأ قل أعوذ برب الناس، ويقرأ في نفسه آية التوجه.

وهذا التوجه قبل الصلاة، والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه إلى القبلة، وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة، ثم يرفع يديه حذو منكبيه، بحيث تكون كفاه حذو منكبيه، وإبهاماه عند شحمة الأذنيه، ورءوس الأصابع مع الأذنين، ويضم الأصابع، وإن نشرها جاز، والضم أولى.

فإنه قيل: النشر نشر الكف لا نشر الأصابع.

ويكبر، ولا يدخل بين ياء أكبر ورائه ألفا، ويجزم أكبر، ويجعل لك في الله، ولا يبالغ في ضم الهاء من الله، ولا يبتدئ بالتكبير إذا استقرت اليدين حذو للمكبين، ويرسلهما مع التكبير من غير نقض.

فالقار إذا سكن القلب تشككت به الجوارح وتأينت بالأولى والأصوب،
ويجمع بين نية الصلاة والتكبير، بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه
يصلى الصلاة بعينها.

وحكى عن الجنيد أنه قال: لكل شيء صفوة وصفة الصلاة
التكبير الأولى.

وإنما كانت التكبير صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة.

قال أبو نصر السراج: سمعت ابن سالم يقول: النية بالله الله ومن الله
والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو، ونصيب العدو وإن
كثر لا يوازن بالنية التي هي لله بالله وإن قل.

وسئل أبو سعيد الخراز: كيف الدخول في الصلاة؟ فقال: هو أن نقبل
على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدي الله ليس بين يدي
الله ليس بينك وبين ترجمان، وهو مقبل عليك، وأنت تناجيه وتعلم بين
يدي من أنت واقف، فإنه الملك العظيم.

وقيل لبعض العارفين: كيف تكبر التكبير الأولى؟

فقال: ينبغى إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك هي الله التعظيم مع
الألف، والهيبة مع اللام، والرقبة والقرب مع الهاء.

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة
والكبرياء، وامتلاً بإطنه نورا، وصار الكون بأسره في قضاء شرح صدره
مكردة بأرض فلا، ثم تلقى الخردة لها يخشى من الوسوسة وحديث
النفس، وما يتخايل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الخردة فالتفت
كيف تزاحم الوسوسة، وحديث النفس مثل هذا العبد.

وقد تزاخم مطالعة العظمة والغيوبة في ذلك كون النية غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة.

والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة باللف صفاتها، مندرجة في نور العظمة انشراج الكواكب في ضوء الشمس، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويحفظها بين السرة والصدر، واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى، ويمد السبحة والوسطى على الساعد، ويقبض بالثلاثة البواقي اليسرى من الطرفين.

وقد أسر أمير المؤمنين على عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾^(١). قال إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر، وذلك أن تحت الصدر عرفا يقال له الناحر، أي ضع يدك على الناحر.

وقال بعضهم: (وانحر) أي استقبل القبلة بنحرك.

وهي ذلك سر خفي يكشف به من وراء أستار الغيب، وذلك أن الله تعالى بلطف حكمته خلق آدمي وشرفه وكرمه، وجعله محل نظره ومورد وحيه، ونخبة ما في أرضه وسماؤه روحانيا وجسمانيا، أرضيا سماويا منتصب القائمة.

مرتفع الهيئة، فنصفه الأعلى من حسد الفؤاد مستودع أسرار السموات، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض، فمحل نفسه ومركزها النصف الأسفل، ومحل روحه الروحاني والقلب والنصف الأعلى.

فجوانب الروح مع جوانب النفس يتطاردان ويتحاذيان، وباعتبار تطاردهما وتعاليهما تكون له تلك ولة الشيطان.

ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجانب بين الإيمان والطبع،
فيكشف المصلى الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجوانب
النفس، متصاعدة من مركزها.

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة،
فيوضع اليمين على الشمال حصر النفس، ومنع من صعود جوانبها. وأثر
ذلك يظهر بنطح الوسوسة، وزوال حديث النفس فى الصلاة.

ثم إذا استوت جوانب الروح، وتمكنت من الفرق إلى القدم عند كمال
الأنس، وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان الشاهدة، تصير النفس مقهورة
ذليلة، ويستنير مركزها بنور الروح، وتنقطع حينئذ جوانب النفس.

وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العادة، ويستغنى حينئذ
عن مقاومة النفس ومنع جوانبها بوضع اليمين على الشمال، فيسهل
حينئذ.

ولعل ذلك الله أعلم ما فعل عن رسول الله ﷺ أنه كان مسبلا، وهو
مذهب مالك رحمه الله.

ثم يقرأ: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾^(١) الآية. وهذا التوجه إبقاء لوجه قلبه،
والذى قبل الصلاة لوجه قلبه. ثم يقول: سبحانك الله وبحمدك، وتبارك
اسمك، وتعالى جنتك، ولا إله غيرك، اللهم أنت الملك لا إله إلا أن سبحانك
وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنوبى.

فاغفر لى ذنوبى جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن
الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف
عنى سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك فالخير كله بيدك، تباركت وتعاليت،
استغفرك وأتوب إليك.

ويطرق رأسه في قيامه، ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القائمة ونزع يسمي الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف مكانه ناظر بجميع جسده إلى الأرض، فهذا من خشوع سائر الأجزاء.

ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع، ويرأى بين القدمين بمقدار أربع أصابع، فإن ضم الكعبين هو الصفد للنهي عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصفن للنهي عنه. نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد. وإذا كان الصفن منها عنه ففي زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصفن، فالأولى رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعاً، ويكره اشتغال الصماء.

وهو أن يخرج يده من قبل صدره، ويجتنب السدل، وهو أن يركب أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء، وقيل هو الذي يلتفت بالثوب ويجعل يديه من داخل، فيركع ويسجد كذلك. وفي معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص.

ويجتنب الكف، وهو أن يرفع يديه عند السجود.

ويكره الاختصار، وهو أن يجعل يده على الحاصرة.

ويكره الصلب، وهو وضع اليدين جميعاً على الخصرين وتجاهي العضدين.

فإذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها مجتنباً للمكاره فقد تم القيام وكمله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها في كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الماتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم.

ومواظاة بين القلب واللسان، بحظ وفقر من فصلة والذنو، والهيبة والخشوع، والخشية والتعظيم والوقار، والشاهدة والناجاة. وإن قرا بين الماتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما في السكتة الثانية: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.

ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد، فحسن، وإن قالها في السكتة الأولى فحسن.

روى عن النبي عليه السلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا بقولها قبل القراءة.

ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان، ومعناها نطق القلب. وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما في قلبه، ولو أمكن للتكلم إلهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تعذر الإلهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا.

فإذا قال باللسان من غير مواظاة القلب فما اللسان ترجمانا، ولا القارئ متكلمًا قاصداً لسماع الله حاجته، ولا مستمعا إلى الله، فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول.

فينبغي أن يكون متكلمًا مناجيًا أو مستمعا وانعيا، فأقل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة، ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها.

قال بعضهم، ما دخلت في صلاة قط فاهمني فيها غير ما أقول.

وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف على الأسنة أحب إلي من أن أجد في الصلاة ما تجنون.

وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة، لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال ﴿مُذِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١). فينيب إلى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبصر عما سواه.

ويقوم الصلاة بصبر منشرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام، فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه، ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة في قضا، قلب ليس فيه غيرها، فيتمسكها القلب بحسن الفهم، ولذا نعمة الإصغاء ويشرّبها بحلاوة الاستماع وحكمال الوعي، ويدرك لطيف معناها وشريف شعورها.

معاني تلطف عن تفصيل الفكر، وتشكل بخفى الفكر، وبصير الظاهر من معاني القرآن قوت النفس.

فالنفس الطمئنة متعوضة بمعاني القرآن عن حديثها، لكونها معبى ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس للكونة لإقامة رسم الحكمة.

ومعاني القرآن الباطنة التي يكشف بها من اللكوت قوت القلب، وتختص إلى الروح القدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة شظية المتكلم، ويمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق في لحج الأشواق.

كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم في مسجد البصرة فوقعت اسطوانة تسامع يسقطها أهل السوق وهو واقف في الصلاة لم يعلم بذلك.

ثم إذا أراد الركوع بفصل بين القراءة والركوع، ثم يرجع مسطوي القامة والنصف الأسفل بحاله في القيام من غير انطواء الركبتين، ويجافى مرفقيه عن جنبه، ويمد عنقه مع ظهره، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع.

روى مصعب بن سعد قال: صليت إلى جنب سعد بن مالك فجعلت يدي بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما، فضرب يدي وقال اضرب بكعبك على ركبتك، وقال يا بنى إنا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب.

ويقول: سبحان ربى العظيم ذلانا، وهو أدنى الكمال، والكمال أن يقول إحدى عشرة، وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع.

ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه، فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود، وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه، ويقول بعد التسبيح: اللهم لك ركعت، ولك خشعت، وبك أمنت، ولك أسلمت، خلع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخى وعصبى، ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات، ثم يرفع رأسه قائلا: سمع الله لمن حمده، عالما بقلبه ما يقول؟

فإذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ثم يقول: أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لنا منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد؟

فإن أطل في النافلة القيام بعد الرفع من الركوع قليلا لربى الحمد، مكررا ذلك مهما شاء، فاما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بيّنة، ويقنع في الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال ' «لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود».

ثم يهوى ساجداً، ويكون في هوية مكبرا مستهظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله. فمن الساجدين من يكشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين، متغيبا في أجزاء تلك لامتلاء قلبه من الحياء، واستشعار روحه عظيم الكبرياء.

كما ورد أن جبريل عليه السلام تسر بخافية من جباحه حياء من الله تعالى. ومن الساجدين من يكشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان، ويسرح قلبه في فضاء الكشف والعيان، فيهوى دون هوية أطباق السموات، وتتمحى لقوة لشهوده تماثيل الكائنات، ويسجد على طرف رداء العظمة، وذلك أقصى ما ينتهي إليه طائر الهمة البشرية، وتفى بالوصول إليه القوى الإنسانية، ويتفاوت الأنبياء والأولياء في مراتب العظمة، واستشعار كنهها، لكل منهم على قدره حظ من ذلك، وفوق كل ذي علم عليم.

ومن الساجدين من يتسع وعاءه، وينتشر ضياءه، ويحظى بالصنفين، ويبسط الجناحين، فيتواضع بقلبه إجلالا، ويرفع بروحه إكراما وإفضالا، فيجتمع له الأنس والهيبة، والحضور والغيبة، والفرار والقرار، والإسرار والجهار.

فيكون في سجوده سابحا في بحر شهوده، لم يتخلف منه عن السجود شعرة، كما قال سيد البشر في سجوده «سجد لك سوادى وخيالى» ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(١). الطوع للروح والقلب لما فيه من الأهلية، والكره من النفس لما فيه من الأجنبية.

ويقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاثا إلى العشر الذي هو الكمال، ويكون في السجود مفتوح العينين، لأنهما يسجدان.

وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه في السجود، فهو أبلغ في الخشوع للساجد، ويباشر بكفيه الصلى، ولا يلفهما في الثوب، ويكون رأسه بين كفيه، ويده حلو منكبيه، غير متيامن ومتياسر بهما.

ويقول بعد التسبيح، اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشفق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وروى أمير المؤمنين على رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده ذلك، وإن قال «سبح قديوس رب الملائكة والروح» فحسن.

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده ذلك. ويجافي مرفقيه عن جنبه، ويوجه أصابعها في السجود نحو القبلة، ويضم أصابع كفيه مع الإبهام، ولا يفرش ذراعيه على الأرض، ثم يرفع رأسه مكبرا، ويجلس على رجله اليسر، وينصب اليمنى موجهها بالأصابع إلى القبلة، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما.

ويقول: رب اغفر لي، وارحمني، وأهملني، واجبرني، وعافني، وعاف عني، ولا يطيل هذه الجلسة في القريضة، أما في الناقلة فلا بأس مهما أطال قائلا: رب اغفر وارحم مكررا ذلك.

ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا.

ويكره الإقعاء في القعود، وهو ههنا أن يضع إبطيه على عقبه

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة، ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد.

وفي الصلاة سر العراج، وهو معراج القلوب، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تنزيح طبقات السموات، والتحيات سلام على رب البريات، هليذهين لا يقول، ويتأدب مع من يقول، ويلور كيف يقول، ويسلم على النبي ﷺ، ويمثله بين عيني قلبه، ويسلم على عباد الله الصالحين.

فلا يبقى عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية، ويضع يده اليمنى على فخذة اليمنى مقبوضة الأصابع إلا السبحة، ويرفع السبحة في الشهادة في إلا الله لا في كلمة النفي، ولا يرفعها منتصب بل مائلة براسها إلى الفخذ منطوية، فهذه هيئة خشوع السبحة.

ودليل سرية خشوع القلب إليها. ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين، إن كان إماما ينهي أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولز ورائه، فإن الإمام التهاظ في الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراء أصحاب الجوائج يسأل لهم ويعرض حاجاتهم، والمؤمنون كالبنهار يشد بعضه بعضا.

وبهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه :

﴿ كَانُهمُ بَنُتَنُ مُرْضُوصٍ ﴿١﴾ ﴾

وفي وصف هذه الأمة في الكتب السالفة وصفهم في صلاتهم كصفهم في قتالهم.

حدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ قال أنا محمد عبد الله بن أحمد السرخسي قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي قال أنا أبو محمد

عبد الله ابن عبد الرحمن النخعي قال أنا مجاهد بن موسى قال حدثنا معن هو ابن عيسى أنه سأل كعب الأحبار كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟

قال: نجد محمد بن عبد الله يولد بمكة، ويهاجر لطيبة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحاش ولا سخاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسينة السينة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمدون، يحمدون الله في كل سراء، ويكبرون الله على كل نكد، يوضئون أطرافهم، ويأتزون في أوساطهم، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، نوبهم في مساجدهم كدوى النحل، يسمع مناديتهم في جو السماء.

فالإمام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان، فهو أوى الصلبيين بالخشوع والإتيان بوظائف الأدب ظاهراً وباطناً.

والصلون التيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم، وتتناصر وتتعاقد، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات، بل جميع المسلمين الصلبيين في القطار الأرض بينهم تعاقد وتتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورواية الإيمان، بل يمدحهم الله تعالى باللائكة الكرام كما أمد رسول الله ﷺ باللائكة المؤمنين.

فحاجاتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم إلى محاربة الكفار، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ: «ارجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتدراكهم الأملاك، بل بأنفاسهم الصلابة تتماسك الأفلاك، فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على اللائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن.

ويجعل خده مبيناً لمن على يمينه بإلقاء عنقه، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يمينه، فقد ورد النهي عن الواصلة والخصلة خمس، الثمان

تختص بالإمام، وهو ألا يوصل القراءة بالتكبير، وفركوع بالقراءة. واثنان على المأموم، وهو ألا يوصل تكبيره الإحرام بتكبيره الإمام، ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة على الإمام والمأمومين، وهو أن يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل، ويجزم التسليم ولا يمد مدا.

ثم يدعو بعد التسليم بما شاء من أمر دينه ودنياه، ويدعو قبل التسليم أيضا في صلب الصلاة فإنه يستجاب.

ومن أقام الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة. وكل المقامات والأحوال زيلتها الصلوات الخمس في جماعة، وهي سر الدين، وكفارة المؤمنين، وتمحيص الخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله إجازة.

قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال أنا عبد الله بن المبارك.

قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ «الصلوات الخمس كفارات للخطايا، واقراءوا إن شئتم» ﴿١﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذِّكْرِ ﴿٥﴾ ﴿١﴾.

الباب الثامن والثلاثون في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب الصلّى أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثير، لأن الأكماس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا.

لأن الدنيا واشتغالها إذا كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة، ورغبة في لوطن القربات، وإذعاناً بالباطن لرب البريات، لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر، وقراغ القلب في الصلاة عما سوى الله تعالى إذعان الباطن.

فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن، حتى لا يختل إذعانهم، فتتخرم عبوديتهم، فيجتنب أن يكون باطنه مرهناً بشيء ويدخل الصلاة. وقيل: من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة، ولهذا ورد ((إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء)).

ولا يصلى وهو حاقن بطالبه البول، ولا حازق بطالبه الغائط، والحرق أيضاً ضيق الخلق. ولا يصلى أيضاً من وخفه ضيق يشغل قلبه.

فقد قيل: لا رأى لحازق. قيل: الذى يكون معه ضيق.

وفي الجملة: ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغصب.

وفي الخبر: لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مقطب، ولا يصلين أحدكم وهو غصيان.

فلا ينبغي أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيئات.

واحسن لبسة الصلى سكون الأطراف، وعدم الالتفات، والإطراق، ووضع اليدين على الشمال، فلما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز

وهي رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز، وأرباب العزيمة يتركون الحركة في الصلاة جملة.

وقد حركت يدي في الصلاة وعندى شخص من الصالحين، فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال، عندنا أن العبد إذا وقف في الصلاة ينهى أن يبقى جماداً لا يتحرك منه شيء.

وقد جاء في الخبر، سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان، الرعاف، والنعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحكائك، والالتفات، والعبث بالشيء من الشيطان أيضاً وقيل، السهو والشك.

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال، إن الخشوع في الصلاة إلا يعرف الصلى من على يمينه وشماله.

ونقل عن سفيان أنه قال، من لم يخشع فسدت صلاته.

وروى عن معاذ بن جبل أنه قال، من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متعمداً فلا صلاة له.

وقال بعض العلماء، من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته فصلاته باطلة. قال بعضهم، لأن ذلك عبث عملاً

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(١). قيل، هو سكون الأطراف والطمأنينة.

قال بعضهم: إذا كثرت التكبير الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك، عالم بما هي ضميرك، ومثل في صلاتك الجنة عن يمينك، والنار عن شمالك.

وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الأجرة ينقطع عنه الوسواس، فيكون هذا التمثيل تنويعاً للقلب لرفع الوسوسة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة قال أنبأنا عمر ابن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين المارسي يقول سمعت محمد بن الحسين يقول.

قال سهل: من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان، فإما من باشر باطنه صفو اليقين ونور العرفة، فيستغنى بشاهدته عن تمثيل مشاهدته.

قال أبو سعيد الخراز: إذا ركع فالأدب هي ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله تعالى، ويصفر في نفسه حتى يكون لقل من الهباء.

وإذا رفع رأسه وحمد الله بعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك.

وقال أيضاً: ويكون معه في الخشية ما يكاد ينوب به.

قال السراج: إذا أخذ العبد في التلاوة فالأدب هي ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه صكاه يسمع من الله تعالى، أو مكانه يقرأ على الله تعالى.

وقال السراج أيضاً: من أنجزهم قبل الصلاة للراقية، ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض، ونفى كل شيء غير الله تعالى.

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكانهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة، فيبكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب فكانهم أبدا في الصلاة، فهذا هو أدب الصلاة.

وقيل: كان بعضهم لا يتهيا له حفظ العدد من كمال استغراقه، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه حكم ركعة صلى.

وقيل: للصلاة أربع شعب: حضور القلب في الحراب، وشهود العقل عند الملك الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتباب، وخضوع الأركان بلا ارتباب.

لأن عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب، وعند حضور النفس فتح الأبواب، وعند خضوع الأركان وجود الثواب.

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو متصل لاه، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو متصل ساه، ومن أتاها بلا خضوع لنفس فهو متصل خاهل، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو متصل جاهه ومن أتاها ككاه وصف فهو متصل واه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى الصلاة مكتوبة، مضيا على الله بقلبه وسمعه وبصره، انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها، وبغسل يديه خطيئة أصابها، وبغسل رجليه خطيئة أصابها، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر».

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال: «أي السرقة أقبح فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته، قالوا:

ككيف يسرق الرجل من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها».

وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال: لا أصلح، فلما ألحوا عليه كبر فغشى عليه، فقدموا إماما آخر، فلما أفاق سئل فقال: لما كنت استنوي هتف بي هاتف هل استويت أنت مع الله قط.

وقال عليه السلام «إن العبد إذا أحسن الوضوء، وصلى الصلاة لوقتها، وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقبتها، قالت: حفظك الله كما حفظتني، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي إلى السماء.

وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها، وإذا أضاعها قالت: ضيعك الله كما ضيعني، ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي إلى أبواب السماء فتغلق دونها، ثم تلف كما تلف النوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها».

وقال أبو سليمان الدارقي: إذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى: «ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبادي» فإذا انتفت يقول الله: أرخواها فيما بيني وبينه، وخلوا عبادي وما اختار لنفسه».

وقال أبو بكر الوراق: ربما أصلى ركعتين فانصرف منهما وأنا استحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا. قوله هذا لعظيم الأذى عنده. ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب.

وقيل لموسى بن جعفر: إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بممرهم بين يديك، قال: إن الذي أصلى له لقرب إلى من الذي يمشى بين يدي.

وقيل: كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه، فيقال له فلك فيقول: أنترون بين يدي من أريد أن أقام؟

وروى عمار بن يسار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل».

قد ورد في لفظ آخر «منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف، والثالث، والرابع، والخمس، حتى يبلغ العشر».

وقال الخواص: ينبغي للرجل أن ينوي توافقه لنقصان فرائضه، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء.

بأننا إن الله لا يقبل ناقلة حتى تؤدي فريضة. يقول الله تعالى: «بدأ بالهدية قبل قضاء الدين».

وقال أيضاً: انقطع الخالق عن الله تعالى بخصلتين: إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض، والثانية أنهم عملوا أعمالاً بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها.

وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملاً إلا بالصدق وإصابة الحق.

وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين، إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع.

وإن تشاءب في الصلاة يضم شففته بقدر الإمكان، ولا يلزق ذننه بصدره، ولا يزاحم في الصلاة غيره.

قيل: ذهب الزحوم بصلاة للزاحم.

وقيل: من ترك الصف الأول مخالفة أن يضيق على أهله فقام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وقيل: إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع حفتان قلبه من ميل.

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره
أزيز كإزيز المرحل، حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة.

وسئل الجنيد: ما فريضة الصلاة؟ قال: قطع العلائق، وجمع الهم،
والحضور بين يدي الله.

وقال الحسن: ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال «إذا دخلت الصلاة فهب
لي من قبلك الخشوع، ومن بينك الخضوع، ومن عينك الدموع، فإني
قريب».

وقال أبو الخير الأقطع، رأيت رسول الله ﷺ في المنام.

فقلت يا رسول الله أوصني، فقال «يا أبا الخير عليك بالصلاة فإني
استوصيت ربي فأوصاني بالصلاة وقال لي إن أقرب ما أكون وأنت تصلي».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان في تفكير خير من قيام
ليلة.

وقيل إن محمد بن يوسف أفرغانى رأى حاتماً الأصم واقفا يحفظ الناس
فقال له يا حاتم أراك تحفظ الناس لتحسن أن تصلي؟

قال: نعم.

قال: كيف تصلي؟

قال: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالهيبة، وأكبر بالعظمة
واقرا بالترتيل، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأقعد للتشهد بالتمام،
واسلم على السنة، وأسلمها إلى ربي، وأحفظها أيام حياتي، وأرجع باللوم على
نفسي، وأخاف ألا تقبل مني، وأرجو أن تقبل مني، وأنا بين الخوف والرجاء،
وأشكر من علمني، وأعلمها من سألني، وأحمد ربي إذ هداني.

فقال محمد بن يوسف: مثلك يصلح أن يكون واعظاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾^(١).

فيل، من حب الدنيا، وقيل من الاهتمام.

وقال عليه السلام: «من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غمر الله له ما تقدم من ذنبه».

وقال «إن الصلاة تمسكن وتواضع، وتضرع وتنادم، وترفع يديك وتقول اللهم اللهم، فمن لا يعمل ذلك فهي خداج» أي ناقصة.

وقد ورد أن المؤمن إذا توجها للصلاة تباعد عنه الشيطان في الطار الأرض خوفاً منه، لأنه تاهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس.

قيل: يضرب بينه وبينه سراق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال الله أكبر، اطلع الملك في قلبه، فإذا لم يسكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت الله في قلبك كما تقول، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش.

ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حسو ذلك النور حسنات.

وإن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين، كما تحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الله على قلبه، فإذا كان شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول.

فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه من الملكوت، فيزداد ذلك الحجاب صلابة، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه ويزين، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وهي الخير «لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

والقلوب الصافية التي كمل لديها لكمال ادب قواها، تصبح سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين، فالقلب السماوي لا سهيل للشيطان إليه، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كاقطاع تصرف الشيطان.

والقلوب المردة بالقرب تدرج بالقرب، وتخرج في طبقات السموات، وهي كل طبقة من أطباق السماء يتحلف شيء من ظلمة النفس، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات، ويقف أمام العرش، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش.

وتندرج ظلمات النفس في نور القلب فتدراج الليل في النهار، وتنادى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب.

وما ذكرنا من ادب الصلاة يسير من كثير، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا واكمل من ذكرنا، وقد غلط اقوام وظنوا ان القصود من الصلاة ذكر الله تعالى.

وإذا حصل الذكر فأي حاجة إلى الصلاة، وسلكوا طرقاً من الضلال، وركنوا إلى أباطيل الخيال، ومحو الرسوم والأحكام ورفضوا الحلال والحرام.

وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقا أدت بهم إلى نقصان الحال، حيث سلموا من الضلال، لأنهم اعترفوا بالفرائض، وأنكروا فضل النواقل واعتزوا بميسر روح الحال، أعملوا فضل الأعمال، ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الهيئات، وكل حركة من الحركات أسراراً وحكماً لا توجد في شيء من الأذكار.

فالأحوال والأعمال روح وجسمان، ومادام العبد في دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال.

الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رول الله ﷺ أنه قال: «الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر».

وقيل، ما في عمل ابن آدم شيء إلا وينتهي به إلى الله تعالى، إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص.

ويقول الله تعالى يوم القيامة: هذا لي فلا يقتص أحد منه شيئا وفي الخبر «الصوم لي ولنا أجرى به».

وقيل، إضافته إلى نفسه، لأن الله خلقنا من اخلاق الصمدية. وإيضاً لأنه من أعمال السر من قبيل التزكك، لا يطلع عليه أحد إلا الله.

وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿السَّابِقُونَ﴾^(١). الصائمون، لأنهم ساقوا إلى الله تعالى بجموعهم وعطشهم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّيْرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

هم الصائمون، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم، ويضرب للصائم إهراساً، ويجارف له مجازفة.

وقيل، أحد الوجوه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) كان عملهم الصوم.

(١) سورة التوبة: الآية ١١٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٠.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

وقال يحيى بن معاذ: إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له، ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بهار الشهوة.

وهي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر وكلها هي كف الشيطان متعلق بها، فإذا جوع بطنه، وأخذ حلقه، وراض نفسه، ببس كل عضو أو احترق بهار الجوع، وهر الشيطان من ظله.

وإذا أشبع بطنه، وترك حلقه في لذات الشهوات، فقد رطب أعضائه، وأمكن للشيطان. والشبع نهر في النفس ترده الشياطين، والجوع نهر في الروح ترده الملائكة، وينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما، فكيف إذا كان نائما. فقلب المرء الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الضعيف والشرع.

دخل رجل إلى الطبيب وهو يأكل خبزا يابسا قد بله بالماء مع ملح جربش، فقال له كيف تشتهي هذا؟ قال: أدعه حتى أشتيه.

وقيل: من أسرف في مطعمه ومشربه، يعجل الصفار والذل إليه في دنياه قبل آخرته.

وقال بعضهم: الباب العظيم الذي يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغداء.

وقال بشر: إن الجوع يصفى العوالم، ويميت الهوى، ويورث العلم الدقيق.

وقال ذو النون: ما أكلت حتى شبعته ولا شربت حتى رويت، إلا عصيت الله أو هممت بمعصية.

وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ويصف الشهر ما ندخل بيتنا تار لا تصباح ولا لغيره.

قال: قلت سبحانه لله، فباي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: بالتمر والماء.
وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما
واسونا بشيء.

وروي أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت لأبيها: إن الله قد أوسع
الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك، ولبست ثيابا ألين من ثيابك؟
فقال إني أخاصمك إلى نفسك، ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا
يقول مرارا، فبكت، فقال قد أخبرتك والله لأشار مكنه في عيشه الشديد لعل
أصيب عيشة الرخاء.

وقال بعضهم، ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاصر

وقالت عائشة رضي الله عنها، ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز
بر حتى مضى لسبيله.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أديموا قرع باب اللكوت بفتح لكم قالوا،
كيف نديم؟ قالت: بالجوع والعطش والظما.
وقيل: ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق،
فقال ما هذه؟

قال: الشهوات التي أصيب بها ابن آدم. قال هل تجد لي فيها شهوة؟ قال،
لا غير أنك شيعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر.

فقال، لا جرم أنى لا أضيع أبدا. قال إبليس، لا جرم أنى لا أنصح أحدا
أبدا.

وقال شقيق، العبادة حرفة، وحانتها الخلوة، وآلتها الجوع.

وقال لقمان لابنه: إذا ملئت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة،
وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين الأدميين فإنه من طعام المنافقين.

وقال بعضهم: أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية.

فيكره للمريد أن يوالى في الإفطار أكثر من أربعة أيام، فإن النفس عند ذلك تتركن إلى العادة، وتتسع بالشهوة.

وقيل: الدنيا بطنك، فعلى قدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا.

وقال عليه السلام: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

وقال فتح الوصلى: صحبت ثلاثين شيخاً كل يومينى عند مفارقتى إياهم بترك عشرة الأحداث، وقلّة الأكل.

الباب الأربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من الشايخ الصوفية كانوا يقيمون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى.

وكان أبو عبد الله بن جابر قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر في السفر والحضر، فجهد به أصعابه يوما فافطر فاعتل من ذلك أياما.

فإذا رأى المرید صلاح قلبه في دوام الصوم فليصم دائما ويدع للإفطار جانباً، فهو عون حسن له على ما يريد.

روى أبو موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «من صام الدهر طيبت عليه جهنم هكذا» وعقد تسعين، أي لم يكن له فيها موضع.

وكره قوم صوم الدهر، هو ألا يفطر العبدن وأيام التشريق فهو الذي يكره. وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله ﷺ.

ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما. وقد ورد «افضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما».

واستحسن ذلك قوم من الصالحين، ليكون بين حال الصبر وحال الشكر.

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما، أو يصوم يوما ويفطر يومين ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة.

وقيل: كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة، وفي رمضان يأكل أكل واحدة، وكان يفطر بالباء الفراح للسنة.

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على النوم، فإذا دخل عليه إخوانه افطر معهم ويقول: ليس فضل الساعة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم.

لقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لا نية للواقعة. وتخليص النية لمحض الواقعة مع وجود شره النفس صعب.

وسمعت شيخنا يقول: لى سنين ما أكلت شيئاً شهوة نفس ابتداء واستدعاء، بل يقدم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله، فأوافق الحق فى فعله.

وذكر أنه فى ذات يوم انتهى الطعام ولم يحضر، ومن عادته تقديم الطعام إليه. قال ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لأكلها.

فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك، فقت: هنا عقوبة لى على تصرفى فى أخذ الرمانة.

ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات أى وقت يحضر الطعام أكل منه، ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق، لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار فى ما يكوئه وملبوسه وجميع تصرفاته.

وكان حاله الوقوف مع فعل الحق، وقد كان له فى ذلك بداية يعز مثلها، حتى نقل أنه كان يبقى أياماً لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه، ولا يتسبب إلى تناول شيء، وينتظر فعل الحق ليسافة الزرق إليه، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان.

ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة، وكانوا يتكلمون الأطعمة ويأتون بها إليه، وهو يرى فى ذلك فضل الحق والواقعة. سمعته يقول: أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم، وينقص الحق على محبتي الصوم بفعله فأوافق الحق فى فعله.

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة.
وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان.

وقال أبو نصر السراج: أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعاً،
واستحسنه آخرون، لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع، وألا
يتمتع برؤية الصوم.

ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية
عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل، والأليق بموافقة العلم إمضاء
الصوم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(١).

ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون، والصدق
محمود لعينه كيف كان، والصادق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون.
والصدق محمود لعينه كيف كان، والصادق في خفارة صدقه
كيف تقلب.

وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فإنه قد
اجتمع معه شيء من الدنيا.

وقيل: إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مريد يحثونه على
الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقا به، ولا يحملوا
حاله على حالهم وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون
لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك.

وقيل: إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه، حتى ينظر
الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه.

وحكى عن أبى الحسن الكى أنه كان يصوم النهار وكان مقيما بالبصرة، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة، وكان قوته فى كل شهر أربع دنانير، يعمل بيده حبال الليف ويبيعها.

وكان الشيخ لو الحسن بن سالم يقول: لا تسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل. وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس.

وقال بعضهم: ما أخلص لله عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف، ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام.

وقيل: أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحاب سبعة أيام لم يأكلوا، فخرج بعض أصحابه ليتظاهر فراهى قشر بطيخ فأحذه وأكله، فراه إنسان فاتبع أثره وجاء برقيق فوضعه بين يدى القوم، فقال الشيخ: من حنى منكم هذه الجنابة؟

فقال الرجل أنا وجئت قشر بطيخ فأكلته، فقال: مكن أنت مع جنابك ورفقتك، فقال: أنا تائب من جنابتي، فقال لا كلام بعد التوبة.

وكانوا يستحبون صيام أيام البيض، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

روى أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض أسود جسده من أثر العصية، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض فأبيض ثلث جسده بكل يوم صامه، حتى أبيض جميع جسده بصيام أيام البيض.

ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان، وإفطار نصفه الأخير، وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به، ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان به يوم أو يومين.

وهكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة
برمضان.

ويستحب صوم العشر من ذى الحجة، والعشر من المحرم، ويستحب
الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم.

وورد في الخبر «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة
والسبت بعد من النار سبعمان عاماً».

الباب الحادي والأربعون في آداب الصوم

آداب الصوفية في الصوم ضبط الظاهر والباطن، وكف الجوارح عن
الآدام، كمنع النفس عن الطعام، ثم كف النفس عن الاهتمام بالأقسام.

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقة وطريق أصحابه أنهم
كانوا يصومون، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه.

ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار، وليس من الأدب أن
يمسك المرء عن المباح ويفطر بهرام الآدام.

قال أبو البرداء، يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يفنون قيام
الحمقى وصيامهم، ونذرة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من
أعمال الغربيين.

ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله
وهو مفطر، وإلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أترك بها ما قوت.

ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع، وأخذهم
من الطعام قهر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجلب النفس
من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة.

والنفس من طبيعتها أنها إذا أظهرت لله تعالى فى شيء واحد على الضرورة
تأدى ذلك إلى سائر أحوالها، فيصير بالأكل النوم ضرورة، والقول والمعل
ضرورة، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته
واقتناده.

ولا يخص بعلم الضرورة وفائدها وطلبها إلا عبد يرى الله تعالى أن يقر به ويدينه، ويصطفيه ويربيه. ويمتنع في صومه من ملاعبة الأهل باللامسة، فإن ذلك آثره للصوم، ويتسحر استعمالاً للسنة.

وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لعنيين، أحدهما عود بركة السنة عليه، والثاني التقوية بالطعام على الصيام.

روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «تسحروا فإن في السحور بركة».

ويعجل الفطر عملاً بالسنة، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين بفطر بلال أو على أعدل من الزبيب أو التمر، أو بأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين، فإحياء ذلك له فضل كثير، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قل أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى.

قال حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوراعى عن مرة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه، «قال الله عز وجل: أحب عباده إلى أعجلهم فطراً».

وقال عليه السلام: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

والإفطار قبل الصلاة ستة، وكان رسول الله ﷺ يعطر على جرعة من ماء، أو منقعة من لبن، أو تمرات.

وهي الخير: كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش

قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام.

وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة.

قال سفيان: من اغتاب قسد صومه.

وعن مجاهد: خصلتان تفسدان الصوم: الغيبة، والكذب.

قال الشيخ أبو طالب المكي: قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم باكل الحرام، فقال ﴿سَمْعُونَ لِلْكَيْبِ أَكْكُلُونَ لِلشَّعْبِ﴾^(١).

وورد فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادت أن تهلكا، فبعثنا إلى رسول الله ﷺ تستأذنا فى الإفطار.

فأرسل إليهما قدحا وقال قولوا لهما قينا فيه ما أكلتما، فقاعت أحدهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا، وقاعت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه، فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان صامتا وأفطرتا على ما حرم الله عليهما».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن أمرؤ شاتمته فليقل إني صائم».

وهى الخبر: إن الصوم أمانة، فليحفظ أحدكم أمانته.

والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم، ولا يدري متى يساق إليه الرزق، فإذا ساق الله الرزق تناوله الأذنب، وهو دائم الرقبة لوقته.

وهو فى إفطاره أفضل من الذى له معلوم معد، فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل.

حكى عن رويم قال: اجتزت في الهاجرة ببعض سكك بغداد.
 فعطشت، فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا جارية قد خرجت ومعها
 كوز جديد ملآن من الماء للبرد، فلما أريت أن أتناوله من يدها قالت: صوفي
 ويشرب بالنهار؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت.
 قال رويم: فاستحييت من ذلك ونذرت ألا أفطر أبدا.

والجماعة الذين كرهوا نواص الصوم كرهوه لكان أن النفس إذا ألقت
 الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم،
 فيرون الفضل في ألا تترك النفس إلى عادة، ورأوا أن الإفطار يوم وصوم يوم
 أشد على النفس.

ومن أدب الفقهاء أن الواحد إذا كان بين جمع وفي صحبة جماعة لا
 يصوم إلا بإذنهم، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم
 على غير معلوم.

فإن صام بإذن الجمع وفتح عليهم شيء لا يلزمهم إخاؤه لنصائهم، مع
 العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك، فإن الله تعالى يأتي لنصائهم
 برزقه، إلا أن يكون النصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته
 لشيوخه أو غير ذلك.

وهكذا النصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره، لأن ذلك من ضعف
 الحال، فإن كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره.

والذي ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم، فاما الصوفية المقيمون في
 رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام، ولا يلزمهم موافقة الجمع مع
 الإفطار، وهذا يظهر في جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار.

فاما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل: مساعدة الصوام للمفطرين
 أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام.

وامر القوم ميناه على الصديق، ومن الصديق انتقاد البية واحوال النفس، فكل ما صحت البية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة هو الأفضل.

فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما وأفطر للموافقة، وإن صام ولم يوافق فله وجه.

فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبي الفضل الحافظ المقدسي.

قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال حدثنا عبد الله بن حماد قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني عطاء بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن النضر عن أبي سعيد الخدري قال: اصطنعت لرسول الله ﷺ «دعاءكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول إني صائم، أفطر وأفطر يوما مكانه».

وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله ﷺ وأصحابه أكلوا وبلال صائم، فقال رسول الله ﷺ «نأكل رزقنا، ورزق بلال هي الجنة».

فإذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو فصلي يرحى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن البية لا بحكم الطبع وتقاضيه.

فإذا لم يجد هذا العنى لا ينبغي أن يلتبس عليه الشره وداعية النفس فليتم صومه. وقد تكون الإجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه.

ومن أحسن أدب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يحد باطله متغبرا عن هيئته، ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذهاب التغير عنه.

ويذهب الطعام بركات يصلحها أو بآيات يتلوها، أو بآداب واستعمال.

يأتي به، فقد ورد في الخير: لا يبيوا طعامكم بالذكر.

ومن مهام آداب الصوم كتمانها مهما أمكن إلا أن يكون متمكناً من

الإخلاص فلا يبالي بظهور أم بطن.

الباب الثاني والأربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفي بحسن نيته، وصحة مقصده، ووفور علمه، وإتيانه بأدابه،
تصير عاداته عبادة.

والصوفي موهوب وقته لله، ويريد حياته لله، كما قال الله تعالى
لنبيه أمرأته: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(١)﴾.

فتدخل على الصوفي أمور العادة لموضع حاجته، وضرورة بشريته،
ويحف بعاداته نور يقظته، وحسن نيته، فتتنور العادات، وتتشكل بالعبادات،
ولهذا ورد، نوم العالم عبادة، ونفسه تسبيح هذا مع كون النوم عين الغفلة.

ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة. فتناول الطعام
أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية،
وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك،
والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة.

وقد ورد، أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس والقالب
بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقلب
على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما صلحا
لعمارة النارين.

والله تعالى ركب الأدمى بلطف حكيمته من أخص جواهر
الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسماوات،

وجعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن آدمي. قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾^(١).

فكون الطبائع وهي الحرارة والرطوبة، والبرودة واليبوسة، وكون بواسطتها النبات، وجعل النبات قواما للحيوانات، وجعل الحيوانات مسخرة للآدمي، يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه.

فالطعام يصل إلى المعدة، وهي المعدة طباع أربع.

فإذا أراد الله اعتدل مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام، فتأخذ الحرارة للبرودة، والرطوبة لليبوسة، فيعدل المزاج، ويأمن الاعوجاج.

وإذا أراد الله تعالى إلقاء قالب وتخريب بنية، أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول، فتعمل الطبائع، ويضطرب المزاج، ويقسم البدن ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٢).

روى عن وهب بن منبه قال: وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام: إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء: من رطب، ويابس وبارد وسخن.

وذلك لأنني خلقت من التراب وهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم، بأنني وبهن قوامه، فلا يقوم الجسم إلا بهن، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن، المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم.

(١) سورة البقرة: آية ٢٩

(٢) سورة الأنعام: آية ٩٦.

ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في الربة السوداء، ومسكن الرطوبة في الربة الصفراء، ومسكن الحرارة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم.

فأياها جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التي جعلتها ملائكة وقوامه، فكانت كل واحدة منهن ربعاً لا يزيد ولا ينقص، مكملت صحته، واعتدلت بنيته.

فإن زادت منهن ربعاً لا يزيد ولا ينقص، مكملت صحته، واعتدلت بنيته، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتن ومالت بهن، ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها، حتى يضعف عن طاقتهن، ويعجز عن مقارهن.

فإنهم الأمور في الطعام أن يكون حلالاً، وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده، ولولا رخصة الشرع مكر الأمر وأتعب طلب الحلال.

ومن أحب الصوافية رؤية النعم على النعم، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام. قال رسول الله ﷺ «لوضوء قبل الطعام ينفي الفقر».

وإنما كان موجباً لنفي الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالأدب، وذلك من شكر النعمة.

والشكر يستوجب الزينة، فصار غسل اليد مستجلباً للنعمة، مذهباً للفقر.

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «من أحب أن يكثر خير بيته، فليتوضأ إذا حضر غلظه، ثم يسمي الله تعالى».

فَقُولَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(١). تفسير
تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان. واختلف الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله
في وجوب ذلك.

وفهم الصوفي من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير ألا يأكل الطعام إلا
مقروناً بالذكر. فقرونه فريضة وقته وأنبه، ويرى أن تناول الطعام وبناء
ينتج من إغامة النفس ومتابعة هواها، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه.

روى عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام في
سنة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما
إنه لو كان يسمى الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليقل بسم الله فإن
نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره».

ويستحب أن يقول في أول لقمة بسم الله، وفي الثانية بسم الله الرحمن،
وهي الثانية يتم، ويشرب الماء بثلاثة أنفاس، يقول في أول نفس الحمد لله رب
العالمين الرحمن الرحيم.

وحكما أن للمعدة طباعاً تتغير كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام،
فالقلب أيضاً مزاج وطباع لأرباب التفقد والرعايا واليقظة، يعرف انحراف مزاج
القلب من النعمة المتناولة.

وتارة تحدث من اللقمة حريرة الطيش بالنهوض إلى العضول.

وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت، وتارة
تحدث رطوبة السهو والغفلة.

وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة.

فهذه مكانها عوارض يتفطن لها للتيقظ ويرى تغير القلب بهذه العوارض
تغير مزاج القلب عن الاعتدال، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقلب للقلب
أهم وأولى. وتطرق الانحراف إلى القلب لسرع منه إلى القلب. ومن الانحراف ما
يسقم به القلب فيموت موت القلب. واسم الله تعالى دواء نافع مجرب بقى
الأسواء، ويذهب الداء، ويجلب الشفاء.

حكى: أن الشيخ محمدا الغزالي لما رجع إلى طوس وصف له في بعض
القرى عبد صالح، فقصده زائرا، فصانقه وهو في صحراء له بهدر الحنطة في
الأرض.

فلما رأى الشيخ محمدا جاء إليه وتقبل عليه، فجاء رجل من أصحابه
وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالعزالي، فامتنع ولم
يعطه البذر.

فسأله الغزالي عن سبب امتناعه، فقال: لأنى البذر هذا البذر بقلب حاضر،
ولسان ذاكر، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا.

فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر.

وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن
تحضر الوقت بذلك، حتى تنقصر أجزاء الطعام بأنوار الذكر، ولا يعقب الطعام
مكروه، ويتغير مزاج القلب.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول: أنا أكل وأنا أصلي، يشير
إلى حضور القلب في الطعام.

وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه
وقت الأكل، ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل أثرا كبيرا لا يسعه
الإهمال له.

ومن الذمكر عند الأكل الفكر فيما هيا لله تعالى من الأسنان العينة على الأكل، فمنها الكاسرة، ومنها المقاطعة، ومنها الطاحنة، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو في الفم حتى لا يتغير النوق.

كما جعل ماء العين مالحة لما كان شحما حتى لا يفسد، وكيف جعل اللعنة تتبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسيطرة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مملها بالكبد.

والكبد بمثابة النار، والعدة بمثابة القدر، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة، ولا يفسد الطعام، ولا ينفصل، ولا يصل إلى كل عضو نصيبه. وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين، وبطول شرح ذلك.

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الأعضاء وتعاونها، وتعلق بعضها ببعض في إصلاح الغذاء واستجلب القوة منه للأعضاء، وانقسامه إلى الدم والنفل واللبن، لتغذية الولود من بين فرت ودم لبنا خالصا سائعا للشاربين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فالذكر في ذلك وقت الطعام، وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذمكر.

ومما يذهب به الطعام الغير لزاج القلب أن يسعو في أول الطعام، ويسأل الله تعالى أن يجعله عوناً على الطاعة.

ويكون من دعائه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وما رزقنا مما نحب اجعله عوناً لنا على ما تحب، وما رزبت عنا مما نحب اجعله فراغاً لنا فيما نحب.

الباب الثالث والأربعون في آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدىء بالملح ويختتم به.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: «يا علي أبدأ طعامك بالملح واختم بالملح، فإن للملح شفاء من سبعين داء، منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس».

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: لدغ رسول الله ﷺ في إبهامه من رجله اليسرى لدغة فقال: «على بذلك الأبيض الذي يكون في العجيب».

فجئنا بملح فوضعه في كفه، ثم لعق منه ثلاث لعقات، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه.

ويستحب الاجتماع على الطعام، وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها.

روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال «من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدي».

وروى أنه قيل يا رسول الله: إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تفترون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه ببارك لكم فيه»..

ومن عادة الصوفية الأكل على السفر، وهو سنة رسول الله ﷺ.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن القومى بإسناده إلى ابن ماجه الحفاظ القزوينى قال أنبأنا محمد بن الثنى قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثنا أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال، ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة قال: فعلام كانوا يأكلون؟

قال: على السفر.

ويصغر اللقمة، وبجود الأكل بالضعف، وينظر بين يديه، ولا يطالع وجوه
الأكليين، ويقعد على رجله اليسرى، وينصب اليمنى، ويجلس جلسة التواضع
غير متكئ ولا متعزز. نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل متكئاً.

وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ شاة، فجاء رسول الله ﷺ على ركبتيه
يأكل.

فقال أعرابي: ما هذه الجلسة يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله
خلقني عبداً ولم يجعلني جباراً عنيداً».

ولا يبتدىء بالطعام حتى يبدأ للقدم أو الشيخ.

روى حنيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً لم يضع أحدنا
يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ.

ويأكل باليمين.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «لأأكل أحدكم بيمينه،
وليشرب بيمينه، ولأأخذ بيمينه، وليعط بيمينه».

فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، ويعطي
بشماله».

وإن كان الأكل تمر أو ماله عجم، لا يجمع من ذلك ما يرمى وما
يؤكل على الطبق ولا في كفه، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه
ويرميه.

ولا يأكل من ذروة الثريد.

روى عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وضع الطعام فخذوا
من حاشيته وخذوا وسطه، فإن البركة تنزل في وسطه».

ولا يعيب الطعام.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: ما عاب رسول ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

وإذا سقطت لقمة فأكلها.

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمصها ولا يتركها ولا يلعها للشيطان». ويلق أصابعه.

فقد روى جابر عن النبي ﷺ قال «إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه فإنه لا يدرى في أي طعامه تكون البركة».

وهكذا أمر عليه السلام بإسالات القصعة، وهو مسحها من الطعام.

قال أنس رضي الله عنه، أمر رسول ﷺ بإسالات القصعة.

ولا ينفخ في الطعام.

فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال «النفخ في الطعام يذهب بالبركة».

وروى عبد الله بن عباس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ في طعام ولا في شرب.

ولا يتنفس في الإناء، فليس من الأدب ذلك.

والخل والبقل على السفرة من السنة. قيل إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل.

روت أم سعد رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وأنا عندها فقال «هل من غداء؟»

فقالته: عندنا خبز وتمر وخل، فقال عليه السلام: نعم الإدام الخل.

اللهم بارك في الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلي، ولم يفقر بيت فيه خل».

ولا يصب على الطعام، فهو من سيرة الأعاجم.

ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين، ففيه نهى.

ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وضعت اللاندة فلا يقوم رجل حتى ترفع اللاندة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل، فإن الرجل يخجل جلسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة».

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره.

فقد روى أبو موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخبز، فإن الله تعالى سخر لكم بهركات السماء والأرض والحديد والبهقروا ابن آدم».

ومن أحسن الأدب وأهمه ألا يأكل إلا بعد الجوع، ويمسك عن الطعام قبل الشبع

فقد روى عن رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه».

ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم، وهو سنة

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره ودخانه».

وإذا فرغ من الطعام تحمد الله تعالى.

روى أبو سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «(من أكل طعاما فقال «الحمد لله الذي أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه»».

ويتخلل، فقد روى عن رسول الله ﷺ «(تخللوا فإنه نظافة، والمظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»».

ويغسل يديه، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «(من بات وفي يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه»».

ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد.

روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله ﷺ «(اترعوا الطسوس وخالفوا الجوس»».

ويستحب مسح العينين بهلل اليد.

روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «(إذا توضأت فاشربوا أصهركم الماء، ولا تنفضوا فإنها مروح الشياطين، قيل لأبي هريرة في الوضوء وغيره؟ قال، نعم في الوضوء وغيره».

وفي غسل اليد يأخذ الأسنان باليمين، وفي الخلال لا يزدر ما يخرج بالخلال من الأسنان. وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به.

ويجتنب التصنع في أكل الطعام، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا، فإن الرياء يدخل في العبد في كل شيء.

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه، قيل له تعلم به بأسا؟ قال: نعم، رأيتَه يتصنع في الأكل، ومن تصنع في الأكل، لا يؤمن عليه التصنع في العمل.

وإن كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

اللهم اطعمنا طيبا، واستعملنا صالحا. وإن كان شبهة يقول، الحمد لله على كل حال، اللهم صل على محمد ولا تجعله عوناً على معصيتك. وليكثر الاستغفار والحزن. ويبكى على أكل الشبهة ولا يصحك، فليس من يأكل وهو يبكى حكمن بأكل وهو يضحك.

ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد، وإيلاف قريش.

ويجتنب الدخول على قوم في وقت أكلهم، فقد ورد «(من مشى إلى طعام لم يدع إليه مش هاسقا وأكل حراما)» وسمعنا لعطاء آخر «(دخل سارها وخرج مغيرا)» إلا أن يتعمق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته.

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار. ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار، ويجتنب للضيف التكلف، إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق، ولا يفعل ذلك حياء وتكافا.

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد الغروب «(الطير عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة)».

وروى أيضا، عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بأئمين ولا أحرار، يصلون بالليل ويصومون بالنهار. كان بعض الصحابة يقول ذلك.

ومن الأنس ألا يستحقر ما يقدم له من طعام.

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول، ما نرى أيهم أعظم وررا، الذي يحتقر ما يقدم إليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه.

ويكره أكل الباهات، وما تكلفه للأعراس والتعازي، فما عمل للنوايح لا يؤكل، وما عمل للعرز لا بأس به وما يجري مجراه.

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه. قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِّيقِكُمْ﴾^(١).

قيل: دخل قوم على سفیان الثوري فلم يجدوه، ففتحوا الباب وانزلوا السفرة وأكلوا، فدخل سفیان فرح وقال: ذكركموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

ومن دعى إلى طعام بالإجابة من السنة، ولؤكد ذلك الوليمة. وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ، وإن عمل ذلك تصنعاً ورياء فهو أقل من التكبر.

روى أن الحسن بن علي مر بقوم من الساكين الذين يسألون الناس على الطرق، وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته، فلما مر بهم سلم عليهم، فردوا عليه السلام وقالوا: هلم الغداء يا بن رسول الله.

فقال: نعم إن الله لا يحب للتكبرين، ثم ننى وركعه، فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل، ثم سلم عليهم وركب.

وكان يقال: الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

وروى أن هارون الرشيد دعا أبا معنوية الضريز وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده في الطست.

فلما فرغ قال: يا أبا معنوية تفرى من صب على يدك؟ قال: لا، قال: أمير المؤمنين، قال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت أهل العلم وأجللتهم فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم.

الباب الرابع والأربعون

في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لنفع الحر والبرد، فكما أن الطعام من حاجات النفس لنفع الجوع.

وكما أن النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الريادات والشهوات، فهكذا في اللباس تتفنن فيه، ولها فيه أهوية متنوعة ومارب مختلفة. فالصوفي يرد النفس في اللباس إلى متابعة صريح العلم.

فيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزق، قال، ولكنه من وجه حلال. وقيل له، وهو وسخ، قال، ولكنه ظاهر.

فنظر الصديق في ثوبه أن يكون من وجه حلال، لأنه ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال، «(من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً)» أي لا فريضة ولا نافلة.

ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهراً، لأن طهارة الثوب شرط في صحة الصلاة، وما عدا هذين النظريين فنظره في كونه يدفع الحر والبرد، لأن ذلك مصلحة النفس، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق.

والصديق لا ينبغي أن يلبس الثوب إلا لله، وهو ستر العورة، أو لنفسه لنفع الحر والبرد.

حكى أن سفيان الثوري رحمه الله خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوباً، فقيل له، ولم يعلم بذلك، فهم أن يخلعه ويغيره، ثم تركه وقال: حيث لبسته نويت أني لبسه لله الآن، فما أغره إلا لنظر الخلق، فلا انقض البية الأولى بهذه.

والصوفية خصوا بظاهرة الأخلاق، وما رزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذي هياه الله تعالى لنفوسهم.

وفي طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع، لوجود تناسب هيئة النفس، وتناسب هيئة النفس هو للشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١).

فالتناسب هو التسوية. فمن التناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم، وطعامهم مشاكلا لكلامهم، وكلامهم مشاكلا لقامهم، لأن التناسب الواقع في النفس مقيد بالعلم، والنشابه والتماثل في الأحوال يحكم به العلم، ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مزج الهوى.

وما عندهم من التطلع إلى التناسب رشح حال سلفهم في وجود التناسب.

قال أبو سليمان النراقى، يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته في بطنه بخمسة دراهم. أنكر ذلك لعدم التناسب.

فمن خشن ثوبه يبغي أن يكون مأكوله من جنسه وإذا اختلف الثوب ولاكول بدل على وجود تعارفه لوجود هوى كامن في أحد الطريق.

إما في طرف الثوب نوضع نظر الخلق.

وإما في طرف اللاكول لفرط الشره، وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى مداواة ليعود إلى حد الاعتدال.

لبس أبو سليمان النراقى ثوبا غسيرا، فقال له أحمد: لو لبست ثوبا أجود من هذا؟ فقال: ليت قلبي في القلوب مثل الميصى في الثياب.

فكان المضراء يلبسون الرقع، وربما كانوا ياختنون الخرق من الزايل ويرقعون بها ثوبهم، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح.

وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه، فكما كانت رقاعهم م الرابيل
كانت لهم من الأبواب.

وكان أبو عبد الله الرقاعي مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة،
وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم، فيقال له في ذلك، فيقول: أنتم
تأكلون بحق التوكل وأنا أكل بحق السكنة، ثم يخرج بين العشاءين لطلب
الكسر من الأبواب.

وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منه.

وحكى أن جماعة من أصحاب الرقعات دخلوا على بشر بن الحارث، فقال
لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الرزى فإنكم تعرفون به وتكرمون له،
السكتوا كلهم، فقال له غلام منهم: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به
ويكرم له.

والله ليظهرن هذا الرزى حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت
يا غلام مثلك من يلبس الرقعة، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب،
ولا يملك غير ثوبه الذي عليه.

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه ليس قميصا يشتره بثلاثة
دراهم، ثم قطع كفه من رعوس أصابعه.

وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطيب إن أردت أن تلقى صاحبك الرقع
قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع.

وحكى عن الجريري قال: كان في حياض بغداد رجل لا تكاد تجده إلا
في ثوب واحد في الشتاء والصيف فسئل عن ذلك فقال: قد كنت ولعت
بكرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنني دخلت الجنة، فرأيت
جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة.

فأرسلت أن أجلس معهم، فإذا بجماعة من اللانكة أخذوا بيدي وأقاموني وقالوا لي: هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان، فلا تجلس معهم، فانتبهت ونفرت إلا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أنلقى الله تعالى.

وقيل: مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية، فرددوه إلى صاحبه.

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا أنه بقي زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا، حتى أنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا.

وقال أبو حفص الحلي: إذا رأيت وضاعة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره.

وقيل: مات ابن الكرني وكان استلا الجنيدى وعليه مرقعته، قبل كان وزن فردسكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا، فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن.

وقد يكون جمع من الصالحين يتكفون لبس غير الرقع وزى الفقراء، ويكون نيتهم في ذلك سر الحال، أو خوف عدم الهوض بواجب حق الرقعة.

وقيل: كان أبو حفص الحلي يلبس قناعا، ولا يبيت فرش فيه الرمل، لعله كان ينام عليه بلا وطاء.

وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين الزب حائلا، ويكون لبس أبي حفص قناعا بعلم ونية يلقي الله تعالى بصحتها، وهكذا الصالحون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يعرض عليهم.

غير أن لبس الخشن والرقع يصلح لسانر الفقراء بنية التقليل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد «من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حل الجنة».

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله، يصير بصفات نفسه، متفقد خفى شهوات النفس، يلقى الله تعالى بحسن النية في ذلك، فلحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها.

ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته، بل يلبس ما يدخل الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن، واحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه، فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جليلة في الثوب الذي أدخله الله عليه يخرجه، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار.

فالعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله إليه.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يتقيد بهيئة من اللبوس، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار. وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنائير، ويلبس العمامة بدينار.

وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس.

وكان الشيخ علي بن الهيثمي يلبس لبس فقراء السود.

وكان أبو بكر الفراء يزنجان يلبس فرواً خشناً ككأحاد العوام، ولكن في لبسه وهيئته نية صالحة. وشرح تفاوت الأقسام في ذلك يطول.

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار، وقد يساق إليه الثوب النام فيلبسه، وكان يقال له، ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك في لبسك هذا الثوب، فيقال لا تلتقى إلا أحد رجلين:

رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع، فنقول له هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه، فيقول لا.

ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة، فنقول له. هل ترى لنا
فيما لبسنا اختياراً، أو ترى عندنا فيه شهوة، فيقول: لا.

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن، ولكن
يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة، فيكثر اللجوء إلى الله والافتقار إليه،
ويسأله أن يريه أحب الرزى إلى الله تعالى، وأصلحه لدينه ودينه، لكونه غير
صاحب غرض وهي في رزى بعينه.

قاله تعالى يفتح عليه ويعرفه زياً مخصوصاً، فيلتزم بذلك الرزى، فيكون
لبسه بالله، ويكون هذا قم وأكمل ممن يكون لبسه الله.

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم، وينبسط بما بسطه له، فيلبس
الثوب عن علم وإيقان، ولا يبالي بما لبسه ناعماً لبس أو خشناً.

وربما لبس ناعماً ولنفسه فيه اختيار وحظ، وذلك الحظ فيه يكون
مكفراً له مرنوداً عليه، موهوباً له، بولائه لله تعالى في إرادة نفسه، ويكون هذا
الشخص تام التزكية، تام الطهارة، محبوباً مراده، يسارع الله تعالى إلى مراده
ومحابه.

غير أن ههنا مزية قدم لكثير من الدعين.

حكى عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والخلقان في
ابتداء أمره، ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم.

ف قيل لأبي يزيد ذلك فقال: ممكن يحيى لم يصبر على الدون فكيف
يصبر على التحف.

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من اللبوس فيلبسه
محموداً فيه، وكل أحوال الصالحين على اختلاف تنوعها مستحسنة: ﴿قُلْ
كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾^(١).

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد، والأبعد من الآفات.

قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه، فرأيت قميصه وسخا، فقلت لامراته فاطمة، اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت: نفعل إن شاء الله. قال: ثم عنته فإذا القميص على حاله.

فقلت يا فاطمة ألم أمركم أن تغسلوه؟ قالت: والله ما له قميص غير هذا.

وقال سالم: كان عمر بن عبد العزيز من الذين الناس لباسا من قبل أن يسلم إليه الخلافة، فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رنة فلبسها.

وقيل: لما مات أبو البراء وجد في ثوبه أربعين رقعة، وكان عطاؤه أربعة آلاف.

وقل زيد بن وهب لبس على بن أبي طالب قميصا رزيا، وكان إذا مد يده بلغ أطراف أصابعه، فعابه الخوارج بذلك فقال: اتعجبوني على لباس هو أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدى به المسلم.

وقيل: كان عمر رضي الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال: دعوا هذه المرات للرجال.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «نوروا قلوبكم بلباس الصوف، فإنه منزه في الدنيا ونور في الآخرة، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم».

وروى أن رسول الله ﷺ احتذى ثوبين، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما، فسجد لله تعالى، فقيل له في ذلك فقال «خشيت أن يعرض عني ربي

فتواضعت له لا حرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت لقت من الله تعالى من
لجلهما» فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم امر فاشترى له نعلان
مخصوصتان.

وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف واحتذى الصوف، وأكمل
من العبيد.

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسانسها وخفى شهواتها
وكامن هواها عسر جدا، فالأنيق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط، وترك ما
يرهب إلى ما لا يريب، ولا يجوز للعبد الدخول في السعة إلا بعد إتقان علم السعة
وكمال تزكية النفس.

وذلك إذا غابت النفس بغيبة هواها للتبع، وتخلصت النية، وتيسر
التصرف بعلم صريح واضح.

وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها، لا يرون النزول إلى الرخص خوفا
من قوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الماعم من الدنيا.

والد قبل، من رقى ثوبه رقى دينه. وقد يرخص في ذلك لمن لا يلتزم
بإلزام الزهد ويقف على رخصة الشرع.

روى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل
الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر، فقال رجل: إن الرجل يجب أن
يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، فقال النبي عليه السلام: إن الله جميل يحسب
الجمال».

فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لا يهوى نفسه في ذلك، غير
مفتخر به ومختال، فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد
فيه وعيد.

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الزرة تلوم من إلى نصف السابق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة. فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر في ردائه إذ أعجبه رداؤه فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

ومن صح حاله بصحة علمه وصحت نيته في ما كوله وملبوسه وسائر تصاريفه، وفي كل الأحوال يستقيم ويتسند باستقامة الباطن مع الله تعالى. وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى.

الباب الخامس والأربعون في ذكر فضل قيام الليل

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُفَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾^(١) نزلت هذه الآية في المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على مكثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحواضر النواب،

وسبقهم للشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها، وأصبح المسلمون بين محنت وجنب، وأصابهم الظما، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي لله.

ولقد غلب الشركون على الماء وأنتم تصلون محبطين ومجنبيين فكيف ترجون الظفر عليهم، فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادي، فشرب المسلمون منه وغتسلوا، وتوضئوا وسقوا النواب وملئوا الأسقية، ولبد الأرض حتى ثبت به الأقدام.

قال الله تعالى: ﴿وُثِّقَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾^(٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ^(٣) أمنهم الله تعالى باللائكة حتى غلبوا الشركون.

ولكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع، الله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصعابة خاصة في تلك الواقعة والحاجة، فهو رحمة نعم للمؤمنين.

والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين، وهو أمنة لقلوبهم من منازعات النفس، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب إذ في

(١) سورة الأنفال، آية ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ١١، ١٢.

شكايتها وتعيبها تكدير القلب وباحتراسها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب.

لما بين القلب والنفس من اللواظاة عند طمأنينتها للمريدين السالكين، فقد قيل، ينبغي أن يكون ذلك الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد، فيكون ثمان ساعات للنوم، ساعتان من ذلك يجعلهما الريد بالليل ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف.

وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدرج عادة. وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والأنس، فإن النوم طبعه بارد رطبت ينفع الجسد والدماغ، ويسكن من الحرارة واليبس الحادث في المزاج، فإن نقص عن الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم، فإذا ناب عن النوم روح القلب وانسه لا يضر نقصانه.

لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم، وقد تقصر مدة حلول الليل بوجود الروح، فتصير بالروح نواقيت الليل الطويلة كالكقصيرة، كما يقال: سنة الوصل سنة، وسنة الهر سنة، فيقصر الليل لأهل الروح.

نقل عن علي بن بكارت أنه قال: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر.

وقيل لبعضهم: كيف أنت والليل؟ قال: ما راعيته قط يربني وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

وقال أبو سليمان النراقى: أهل الليل هي ليالهم أشد لذة من أهل اللهو هي لهوهم.

وقال بعضهم: ليس هي النخيا شيء يشبه تعيم أهل الجنة إلا ما يحلله أهل التملك هي قلوبهم بالليل من حلالة الناحية ثوب عاجل لأهل الليل.

وقال بعض العارفين: إن الله تعالى بطلع على قلوب المستيقظين في
الأسحار فيملؤها نورا، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، ثم تنتشر من قلوبهم
الفوائد إلى قلوب الغافلين.

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه: إن لي
عبادا يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إلى ولشتاق إليهم، ويذكرونني ولأذكرهم،
وينظرون إلى وأنظر إليهم، فإن حدثت طريقهم أحببتك وإن عدت عن ذلك
مقتك. قال: يا رب وما علامتهم؟

قال: يرعون الطلأم بالنهار كما يرعى الراعي غنمه، ويحنون إلى
غروب الشمس كما تحن الطير إلى نوكرها، فإذا جهنم الليل واختلط الظلام
وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم، والترضوا لي وجوههم، وناجوني
بكلامى، وتعلقوا إلى بأنعامى، فبين صارخ وبك، وبين مملؤه وشاك، بعينى ما
يتعملون من أجلى، وبسمى ما يشتكون من حبى.

أول ما أعطيهم أن ألطف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنى كما أخبر
عنهم. والثانى لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما فى موازينهم
لاستقللتها لهم. والثالث لقبل بوجهى عليهم، فترى من أقبلت بوجهى عليه
أعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟

فالصديق الريد إذا خلا ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع
أجزاء نهاره، ويصير نهاره فى حمالة ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون
حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير
قالبه فى قبة من قلب الحق مسلحا بحركاته، موفرة سكناته.

وقد ورد: من صلى بالليل حصن وجهه بالنهار، ويجوز أن يكون لعنيين:

أحدهما: إن الشكاة تستتير بالمصباح، فإذا صار سراج اليقين في القلب، يزهر بكثرة زيت العمل بالليل، فيزداد المصباح إشراقاً، وتكتسب مشكاة القلب نوراً وضياءً.

كان يقول سهل بن عبد الله اليقيني نَار، والإقرار فتيلة، والعمل زيت، وقد قال الله تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي رُجُومِهِمْ مِّنْ أَثَرِ الشُّجُودِ﴾^(١).
وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾^(٢).

النور اليقيني من نور الله في زجاجة القلب يزداد ضياءً بزيت العمل، فتبقى زجاجة القلب كالكوب النري.

وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القلب. وايضا يبين القلب بنار النور، ويسرى نوره إلى القالب، فيبين القالب للين القلب، فيتشابهان لوجود اللين الذي عندهما. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣).

وصف الجلود باللين فكما وصف القلوب باللين، فإذا امتلأ القلب بالنور، ولأن القالب بما يسرى فيه من الأسس والسرور، يندرج الزمان والمكان في نور القلب، ويندرج فيه الكلم والآيات والصور، وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها، إذ يصير القلب سماء، والقالب أرضاً.

ولذا تلاوة كلام الله في محل للتأجاة تستر ككون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود في مزاحمة صفو الشهود، فلا يبقى حينئذٍ للنفس حديث، ولا يسمع لها جرس حسي، وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس، وذلك هو الفضل العظيم.

(١) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة الزمر، آية ٢٣.

الوجه الثاني لقوله عليه السلام: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار»
معناه أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تسحن وتتلركه للعودة من الله الكريم
في تصاريقه، ويكون معانا في مصيره ومورده، فيحسن وجهه مقاصده
وأفعاله، وينتظم في سلك السبل مسدا لقوله، لأن الأقوال تستقيم
بإستقامة القلب.

الباب السادس والأربعون في ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند الغروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجئ الليل وصلاة المغرب، مقبها في ذلك على أنواع الذكركار، ومن أولها التسبيح والاستغفار. قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسَيِّئَ يَمَنِّكَ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۖ﴾^(١).

ومن ذلك أن يواصل بين العشاء بالصلاة أو بالذلاوة أو بالذكر، والفضل ذلك الصلاة، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينفصل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار، من رؤية الخلق ومخالطتهم، وسماع كلامهم.

فإن ذلك كله له أثر وخدم في القلوب، حتى النظر إليهم يعقب حكرا في القلب، يدركه من يرزق صفاء القلب، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى في العين للبصر. وبالواصل بين العشاءين يرحى ذهب ذلك الأثر.

ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الأخيرة، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين، ويقيد من قيام الليل.

سيما إذا كان عريا عن يقظة القلب ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الأخيرة أيضا معين على قيام الليل.

حكى لي بعض الفقراء عن شيخ لي بخراسان أنه كان يغتسل في الليل ثلاث مرات، مرة بعد العشاء الأخيرة، ومرة في أثناء الليل بعد الانتباه من النوم.

ومرة قبل الصبح. فالوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل.

ومن ذلك التعود على النكرا أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه، إلا أن يكون وانما من نفسه وعادته، فيتعلم للنوم ويستجلبه ليقوم في وقته للعبود، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للمريدين والمطالبيين.

وبهذا وصف الحبون، قيل نومهم نوم غرقى، وأكلهم أكل للرضى، وكلامهم ضرورة، فمن نام عن غلبة بهم مجتمع بقيام الليل يوفق لقيام الليل، وإنما النفس إذا أطمعت ووهنت على النوم استرسلت فيه، وإذا أزعجت بصديق العزيمة لا تسترسل في الاستمرار، وهذا الانزعاج في النفس بصديق العزيمة هو التجاهل الذي قال الله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾^(١).

لأنهم بقيام الليل وصديق العزيمة يجعل بين الجنب واللوضع نبوا وتجاهليا.

وقد قيل، للنفس نظران، نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البليزية، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية.

فأرباب العزيمة تجاهلت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية، فأعطوا النفوس حقا من النوم ومنعوها حظها، فالنفس بما فيها مركوز من التريبة والجمادية ترسب وتستحس وتستلذ النوم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٢).

(١) سورة السجدة: آية ١٦

(٢) سورة غافر: آية ٦٧.

وللأدمى بكل أصل من أصول خلقتة طبيعة لازمة له، والرسوب صفة التراب، والكسل والتقاعد والتناوب بسبب ذلك طبيعة في الإنسان. فأرباب الهممة العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ الْبَلَىٰ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾^(١). حتى قال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم، فهم لموضع علمهم أزعجوا النعوس عن مزار طبيعتها، ورفوها بالنظر إلى الفت الروحانية إلى نرى حقيقتها، فتجالت جنوبهم عن المضاجع، وخرجوا من صفة الغافل الهاجع.

ومن ذلك أن يغير العادة، فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء. وقد كان بعضهم يقول: لأن نرى في بيتي شيطاناً أحب إلى من أن نرى وسادة، فإنها تسعونى إلى النوم.

ولتغير العادة هي الوسادة والغطاء والوطاء تأثير هي ذلك، ومن ترك شيئاً من ذلك والله عالم بنيتة وعزيمته ينبيه على ذلك بتيسير ما رام.

ومن ذلك خفة المعدة من الطعام، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقرن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل، لأن بالنكر ينهب دونه.

فإن وجد للطعام ثقلاً على المعدة ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر، فلا ينام حتى ينيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار.

قال بعضهم: لأن أنقص من عشائي لقمة أحب إلى من أن أقوم ليلة.

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لا يرى ما إذا يحدث، ويعد ظهوره وسواكه عنده، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة.

(١) سورة الرمر: آية ٩.

(٢) سورة الرمر: آية ٩.

قال رسول الله ﷺ «إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينع على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصديق».

والريد المتأمل إذا نام في الفراش مع الزوجة ينتفض وضوؤه باللمس، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل في التلذذ النفس باللمس، ولا يعدم يقظة القلب.

فأما إذا استرسل في الالتذذ وغفل فتعجب الروح أيضا لكان صلاحته.

ومن الطهارة التي تنمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى، وكسورة محبة الدنيا، والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد.

وقد ورد، من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما أحترم.

وإذا ظهرت النفس عن فراشها انجلت مرة القلب وقابل اللوح المحفوظ في النوم، واستقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء. ففي الصديقين من يكون له في منامه مكانة ومحادثة، فيأمره الله تعالى وينهاه، ويفهمه في المنام ويعرفه، ويكون موضع ما يفتح له في نومه من الأمر والعهي كالأمر والنهي الظاهر، يعصى الله تعالى إن أخلبها.

بل تكون هذه الأوامر أكند وأعظم وقعا، لأن الحالفات الظاهرة تمحوها التوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى.

فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة، ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام القت، فإن ابتلى العبد في بعض الأحيان بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحنث بمسح

أعضاءه بالماء مسحاً حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الخافلين حيث تقاعد عن فعل التيقظين.

وهكذا إذا مكسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحاً حتى يخرج في ثقلباته وقلباهااته عن زمرة الخافلين، فمى ذلك فضل كثير لأن أكثر نومه وقل قيامه.

روى ابن رسول الله ﷺ كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نوم وعند الانتباه منه، ويستقبل القبلة في نومه. وهو على نوعين، إماماً على جنبه الأيمن كاللحود.

وإما على ظهره مستقبلاً للقبلة كالكهنة السجى، ويقول: باسمك اللهم ربى وضعت جنبى وبك أرفع، اللهم إن أمسكت نفسى فاعفُ عنها ولا رحمتها.

وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم إني أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمري إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلته، اللهم فنى عذابك يوم تبعث عبادك، الحمد لله الذى حكم فقهر، الحمد لله الذى بطن فحير، الحمد لله الذى ملك فقدر.

الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير، اللهم إني أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشره.

ويقرا خمس آيات من البقرة الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

وآية الكرسي، ﴿وَأَمَّا الرَّسُولُ﴾^(٢).

﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة، آية ١٦٤

(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٥.

(٣) سورة الأعراف، آية ٥٤.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ﴾^(١).

ولول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر،

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) والعودتين، وينفث بهن في يديه، ويمسح
بهما وجهه وجسده.

وإن أضاف إلى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن.

ويقول، اللهم ايقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال
إليك التي تقربني إليك زلفى، وتبعدني من سخطك بعدا، أسالك فتعطيني،
واستغفرك فتغفر لي، وادعوك فتستجيب لي، اللهم لا تؤمنى منكرك، ولا
تولنى غيرك، ولا ترفع عني شرك، ولا تنسنى ذكرك، ولا تجعلنى من
الغافلين.

ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوظفونه
للصلاة، فإن صلى ودعا آمنوا دعاءه، وإن لم يقم تعبث الأملاك في الهواء.

ومكتب لهم ثواب عبادتهم، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاث
وثللاثين، ويتم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلى العظيم.

(١) سورة الإسراء: آية ١١٠

(٢) سورة الكافرون: آية ١

(٣) سورة الإخلاص: آية ١

الباب السابع والأربعون في أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب صلى ركعتين خفيفتين بين الأذان والإقامة.

وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين في البيت، يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة، كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظناً منهم أنهما سنة.

وإذا صلى المغرب صلى ركعتي السنة بعد المغرب، يعجل بهما فإلهما يرفهان مع الفريضة، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل، مرحبا بالمكنين الكريمين الكاتبين.

اكتبوا في صحيفتي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن الجنة حق والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، والصراط والميزان حق، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتي إليها. اللهم احطط بها وزري، واغفر بها ذنبي، ونقل بها ميزاني، وتوجب لي بها أمانى، وتجاوز عني يا أرحم الراحمين.

فإن واصل بين العشاءين في مسجد جماعته يكون جامعاً بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين، وإن رأى تنصرفه إلى منزله وإن لمواصلة بين العشاءين في بيته أسلم لحيته، ولقرب إلى الإخلاص، واجمع اللهم فليفعل.

وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿تَسْجَاتُ جُنُوبَهُمْ عَنِ
الْمَضَاجِعِ﴾^(١) فقال «هي الصلاة بين العشاءين».

وقال عليه السلام «عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تنهتكم بملاغة
النهار، وتنهتكم آخره».

ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق، ثم
ركعتين بعد ركعتين يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة،
والآيتين ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾^(٢) إلى آخر الآيتين، وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ
هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).

وهي الثانية آية الكرسي، و﴿وَأَمِنْ الرَّسُولُ﴾^(٤)، وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ
هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥).

ويقرأ في الركعتين الأخريتين من سورة الزمر والواقعة، ويصلي بعد
ذلك ما شاء، فإن أراد أن يقرأ شيئاً من حزيه في هذا الوقت في الصلاة أو
غيرها، وإن شاء صلى عشرين ركعة فحسن، وفي هاتين الركعتين يحل
القيام تالياً للقرآن حزيه أو مكرراً آية فيها الدعاء والتلاوة، مثل أن يقرأ
مكرراً ﴿رَبُّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٦).

أو آية أخرى في معناها فيكون جامعاً بين التلاوة والصلاة والدعاء،
وهي ذلك جمع اللهم، وظفر بالفصل، ثم يصلي قبل العشاء أربعاً وبعدها
ركعتين، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعاً أخرى.

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤

(٢) سورة البقرة: آية ٢٠٣

(٣) سورة الاحقاف: آية ٢

(٤) سورة البقرة: آية ٢٨٥

(٥) سورة المائدة: آية ٢٣

وقد كان رسول الله ﷺ يصلي في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعاً،
ويقرأ في هذه الأربع سورة لقمان، ويس، وحم النخيل، وتبارك للكل.

وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي، وأمن الرسول، وأول سورة
الحديد، وآخر سورة الحشر، ويصلي بعد الأربع إحدى عشرة ركعة، يقرأ فيها
ثلاثمائة آية من القرآن، من ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾^(١) إلى آخر القرآن ثلاثمائة
آية.

هكذا ذكر الشيخ أبو طالب الكي رحمه الله. وإن أراد قرا هذا الفتر في أقل
من هذا العدد من الركعات. وإن قرا من سورة البقرة إلى آخر القرآن وهو ألف آية
فهو خير عظيم كثير.

وإن لم يحيط القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر.

ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجيد إلا أن يكون وانفا من نفسه في عاقبتها
بالانتباه للتهجد، فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجيد حينئذ أفضل.

وقد كان بعض العلماء إذاوتر قبل النوم ثم قام يتهجّد يصلي ركعة
يشفع بها وتره، ثم يتنقل ما شاء، ويوفي آخر ذلك.

وإذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما
بإنا زلزلت وألهاكم.

وقيل، فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر، حتى
إذا أراد التهجّد يأتي به ويوتر في آخر تهجده. ونية هاتين الركعتين نية النقل
لا غير ذلك. وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون في كيفية نيتهما.

وإن قرا في كل ليلة تسبحت وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير ستا، فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركاتها.

إذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله، ويصرف فكره إلى أمر الله، قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله، ويشغل اللسان بالذكر، فالصادق كالطفل الكلف بالشيء إذا نام ينام على محبة الشيء. وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلف به، وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون اللوت والقيام إلى الحشر، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما همه، فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر، إن كان همه الله همه هو، وإلا فهمه غير الله.

والعبد إذا انتبه من النوم بباطنه عائد إلى مملكة الفطرة، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه، ويكون قارا إلى ربه بباطنه خوفا من ذكر الأغيار، ومهما وافى الباطن بهذا للعبار.

فقد انتهى طريق الأنوار، وطرق النفحات الإلهية، فحسب أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا، ويصير جناب القرب له مونا ومنا، ويقول باللسان: الحمد لله الذي أحبانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران، ثم يقصد الماء الطهور. قال الله تعالى ﴿وَنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ﴾^(١).

وقال عز وجل: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ نَوْدِيَّةٌ بِقَدَرِهَا﴾^(٢) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الماء القرآن، والأودية القلوب، فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت. ولما مطهر والقرآن مطهر، والقرآن يالتطهير بحجر، فإلقاء يقوم غيره مقامه، والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسدده.

(١) سورة الأنفال آية ١١.

(٢) سورة الرعد آية ١٧.

فإلّا الطهور يظهر الظاهر، والعلم والقرآن يظهران الباطن، وينتهيان رجز الشيطان.

فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع، وجدير أن يكون من رجز الشيطان، لما فيه من الغفلة عن الله تعالى.

وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض، فكانت القبضة جلدة الأرض، والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها لئمة. قال الله تعالى ﴿رَبِّیْ خَلَقْ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝﴾^(١).

فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته، واللئمة عبارة عن باطنه وأدميته. واللئمة مجمع الأخلاق الحميدة. كان التراب موطن أقدام إبليس.

ومن ذلك اكتسب ظلمة، وصارت تلك الظلمة معجونة في طينة الأدمي، ومنها الصفات للذمومة والأخلاق الرديئة، ومنها الغفلة والسهو.

فإذا استعمل الماء وقرا القرآن أتى بالطهرين جميعا، وينتهي عنه رجز الشيطان وآثر وطائنه، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل.

فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير في تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير في تكمير القلب، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار.

وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من الفقهة في الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للإثم، والإثم رجز من الشيطان، ولما ينهى رجز الشيطان، حتى مكان بعضهم يتوضأ من الخيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن.

ولو أن المتحفظ أراعى الرقيب للحاسب كلما انطلقت النفس في مباح من كلام، أو مساكنة إلى مخالطة الناس، أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة، كالخوض فيما لا يعنى قولاً وفعلًا، عقب ذلك بتجديد الوضوء، لثبت القلب على طهارته ونزاهته.

ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذي لا يزال بخفة حركته يجلو البصر، وما يعلقها إلا العالون.

لتفكر فيما نبهتك عليه تجد برركته واخره. ولو اغتسل عند هذه للتجديدات والعوارض والانتباه من النوم، كان أزيد في تنوير قلبه، وكان الأجر أن العبد يفتسل لكل فريضة، بأذلا مجهوده في الاستعداد لنجاة الله.

ويجند غسل الباطن بصدق الإنابة، وقد قال له تعالى ﴿مُتَبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١) قدم الإنابة للدخول في الصلاة، ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج، وعوض بالوضوء عن الغسل، وجوز أداء متفرضان بوضوء واحد، دفعا للحرج عن عامة الأمة، وللحواس وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى، وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى.

فإذا قام إلا الصلاة ولربما استفتاح التهجيد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، ويقول: سبحان الله والحمد لله، الكلمات عشر مرات.

ويقول: الله أكبر ذو الملك واللكوت والجبروت والكبرياء، والعظمة والجلال، والقدرة، اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق، ومتك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والأنبياء حق، ومحمد عليه السلام حق، اللهم لك

اسلمت، وبك امنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، واليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت.

أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت اللهم ات نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم اهني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت.

أسالك مسألة البائس للسكين، وأعوذ دعاء العسير الذليل، فلا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رءوفاً رحيماً، يا خير المستولين وبأ أكرم العطين.

ثم يصلي ركعتين تحية الطهارة، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ^(١) الآية، وفي الثانية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٢).

ويستغفر بعد الركعتين مرات، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد بقراً فهما بآية الكرسي، وآمن الرسول، وإن أراد غير ذلك، ثم يصلي ركعتين طويلتين.

هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتشهد هكذا، ثم يصلي ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين، وهكذا يتدرج إلى أن يصلي اثنتي عشرة ركعة، أو ثمان ركعات، أو يزيد على ذلك فضلاً كثيراً والله أعلم.

(١) سورة البقرة، آية ٢٤.

(٢) سورة البقرة، آية ١١٠.

الباب الثامن والأربعون في تقسيم قيام الليل

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُحَدَاءَ وَاقِينَ﴾ (١).

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢). كان عملهم قيام الليل.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٣). استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو. وهي الخير: «عليكم بقيام الليل فإنه من دابة مرضاة ربكم، وهو دابة الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، ومنغاة للوزر، ومنهيب مكيد الشيطان، ومطرودة للنفس عن الجسد».

وقد جمع من الصالحين يقومون الليل كله، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الفلاة بوضوء العشاء، منهم سعيد بن المسيب، وفضيل بن عياض، وهيب بن الورد، وأبو سليمان النخعي، وعلي بن بكار، وحبيب العجمي، وكهمس بن النحال وأبو حازم، ومحمد بن الككر، وأبو حنيفة رحمه الله، وغيرهم.

عندهم وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب الكي في كتابه قوت القلوب. فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثه أو ثلثه، وأقل الاستحباب سلس الليل. فإما أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سلسه الآخر، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه وينام سلس.

روى أن داود عليه السلام قال يارب إني أحب أن اتعب لك فأي وقت أقوم؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، فإنه من قام أوله نام

(١) سورة الفرقان، آية ٦٤.

(٢) سورة السجدة، آية ١٧.

(٣) سورة البقرة، آية ٤٥.

آخره، ومن قام آخره نام اوله، ولكن قم وسط الليل، حتى تخلو بي واحلو بك، ويرفع إلى حوائجك.

ويكون القيام بين نومتين وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل، فإذا غلبه النوم بنام، فإذا انتبه يتوضأ، فيكون له قومتان ونومتان، ويكون ذلك من الفضل ما يفعله، ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول.

وقد ورد: لا تكابلوا الليل.

وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعافت بحبل، فهي رسول الله ﷺ عن ذلك وقال «ليصل أحدكم من الليل ما تيسر، فإذا غلبه النوم فلينام».

وقال عليه السلام «لا تشادوا هنا النجم فإنه متين، فمن تشاد يغبه».

ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، ولا يلحق بالطالب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل.

ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتتم تلك الساعة، وكلما يصلي بالليل يجلس قليلاً بعد كل ركعتين، ويسبح ويستغفر ويصلي على رسول الله ﷺ فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام.

وقد كان بعض الصالحين يقول: هي أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أدام الله عيني.

وحكى لى بعض الفقهاء عن شيخ له انه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل، واكله واحدة لليوم والليل.

وقد جاء فى الخير: قم من الليل ولو قدر حلب شاة. وقيل: يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ﴾^(١). هو قيام الليل. ومن حرم قيام الليل كسلا وهتورا فى العزيمة أو تهاونا به لعله الاعتدال بذلك، أو اغتررا بحاله، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير.

وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب، ويجد من دعة القرب، ما يغتر عليه داعية الشوق، ويرى أن القيام وقوف فى مقام الشوق، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المسلمين.

والذى له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر، والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة. ولا حالة أجل من حال رسول الله ﷺ، وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه.

وقد يقول بعض من يحتاج فى ذلك إلى رسول ﷺ فعل ذلك تشريعا، فنقول: ما بالنا نتبع تشريعه وهذه حقيقة فتعلم أن رؤية الفضيلة فى ترك القيام وانعفاء الإيواء إلى جنب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالى، وهو تقيد بالحال وتحكم للحال وتحكم من الحال فى العبد.

والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال، ويصرفون الحال فى صور الأعمال، فهم متصرفون فى الحال لا الحال متصرف فيهم، فليعلم ذلك فإننا رأينا من الأصحاب من كان فى ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور.

(١) سورة آل عمران: آية ٦٦.

قيل للمحسن، يا أبا سعيد إنى أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد
طهورى فما بالى لا قوم؟ قال: ذنوبك قبيلتك فليحذر العبد فى نهاره ذنوبا
تقيدته فى ليله.

وقال النورى رحمه الله: حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنوب الذنوب،
فقبل له، ما كان الذنب؟ قال: رأيت رجلا بكاء فقلت فى نفسى هذا مرء.

وقال بعضهم: دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت: ما بك أذاك
نعم بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت: وجع يؤلك؟ قال: أشد، فقلت: وما ذاك؟
قال: بابى معلق، وسرى مسبل، ولم أقرا حزبى البارجة، وما ذاك إلا بذنوب
أحدثته.

وقال بعضهم: الاحتلام عقوبة. وهذا صحيح، لأن للرأى التحفظ بنية
تحفظه علمه بحاله يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام، ولا يتطرق الاحتلام
إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وذنوب حاله، ومن مكمل تحفظه
ورعايته، وقيامه بذنوب حاله.

قد يكون من ذنبه اللوجب للاحتلام، ووضع الرأس على الوسادة، إذا كان
ذا عزيمة فى ترك الوسادة، وقد يتهمد للنوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن
النية من لا يكون ذلك ذنبه، وله فيه نية للعون على القيام، وقد يكون ذلك
ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس.

فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جاليا للاحتلام، ففس على هذا
ذنوب الأحوال، فإنها تختص بأربابها، ويعرفها أصحابها. وقد يرتفق بأنواع
الرفق من الفرائض الوطنى والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام إذا كان عالما ذنبيه
يعرف مناخل الأمور ومخارجها، وكم من نائم يسبق القائم لوهر علمه
وحسن نيته.

وهي الخير: «إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقده، وإن توضأ انحلت أخرى، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس».

وهي خبر آخر «أن من نام حتى يصبح بال الشيطان في لذه».

والذي يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بأمور الدنيا وكثرة إشغال الدنيا، وإتعب الجوارح، والامتلاء من الطعام، وكثرة الحديث، والقو والنحو وإهمال القيلولة، والوفاق من بفتنة وقتها، ويعرف داءه ودواءه، ولا يهمل

الباب التاسع والأربعون في استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾^(١) اجمع للفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر، واختلفوا في الطرف الآخر.

قال قوم: أراد به المغرب وقال آخرون: صلاة العشاء. وقال قوم: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفا من الليل، صلاة العشاء.

ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها، وقال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ أَسْفَتَاتِكَ﴾^(٢) أي الصلوات الخمس يذهب بها الخطيئات.

وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري كان يبيع التمر، فأتته امرأة تبتاع تمرا، فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه، فهل لك فيه رغبة؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، ثم أتى النبي عليه السلام وقال يا رسول الله ما تقول في رجل رواد امرأة عن نفسها ولم يبق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبته غير أنه لم يجامعها؟

قال عمر بن الخطاب: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك. ولم يرد رسول الله ﷺ عليه شيئا، وقال: فتظر أمر ربي، وحضرت صلاة العصر، وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر، فلما فرط لثام حيريل بهذه الآية، فقال النبي عليه السلام: أين أبو اليسر؟ فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، قال: «شئت معنا هذه

(١) سورة هود: آية ١١٤.

(٢) سورة هود: آية ١١٤.

الصلاة؟ قال: نعم، قال: «أذهب فإنها كفارة لما عملت» فقال عمر: يا رسول الله هنا له خاصة أو لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل، ثم يؤذن إن لم يكن أحباب المؤذن، ثم يصلي ركعتي الفجر، يقرأ في الأولى بعد الماتحة ﴿قُلْ بِتَائِبَاتِ الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وإن أراد قرا في الأولى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ﴾^(١) الآية هي سورة البقرة، وفي الأخرى ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(٢).

ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما تيسر له من العدد، وإن اقتصر على كلمة استغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى، لى بالقصود من التسبيح والاستغفار.

ثم يقول، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعنى، وترد بها المئين عنى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وترزقنى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتلقنى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء.

اللهم أعطنى إيماناً صادقاً، ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء.

(١) سورة البقرة، آية ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٢.

اللهم انزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي، وضعف عملي، واقتقرت إلى رحمتك، وأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرني من غلب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور.

اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف فيه عملي، ولم تبلغه نيّتي وأمنيّتي، من خير وعلمته أحدا من عبّادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فأنا راجع إليك فيه، وأسألك بإياه يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا هادين مهدين، غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وساماً لأوليائك، نحب بحبك الناس، ونعادي بعبودتك من خالك من خلقك، اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكليف، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ذي الصل الشديد والأمر الرشيد.

أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع للقربين الشهود، والركع السجود، والوفاء بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، سبحان من تعطف بالعز وقال به، سبحان من لبس للجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينهض التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي الجود والكرم.

سبحان الذي أحصى كل شيء بحلمه. اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قلبي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، ونورا من يدي ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا.

ولهذا الدعاء أثر كبير، وما رأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة، وهو من وصية الصالحين بعضهم بعضا بحفظه والحاقظة عليه

منقول عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر، ثم يقصد للسجد للصلاة في الجماعة.

ويقول عند خروجه من منزله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْجِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾^(١).

ويقول في الطريق: «اللهم اني اسالك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا اليك، لم أخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، اسالك ان تنقذني من النار، وان تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله تعالى عليه بوجه الكريم حتى يقضى صلاته».

وإذا دخل المسجد، أو دخل سجادته للصلاة يقول، بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي ابواب رحمتك، ويقدم رجله اليمنى في الدخول، ويسرى في الخروج من المسجد أو السجادة. السجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد.

ثم يصلي صلاة الصبح في جماعة، فإذا سلم يقول، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، أهل النعمة والفضل والثناء الحسن.

لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافون. ويقرا هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها، فإذا فرط منها يقول: اللهم صل على محمد عبدك وتبنيك ورسولك اللهم أنت

(١) سورة آل عمران: آية ٥٢.

السلام، ومملك السلام، وإليك يعود السلام، فحينما ربنا بالسلام، وأدخلنا دار
السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك دفع ما أرجو،
وأصبح الأمر بيد غيري، ولا تسبني صديقي، ولا تجعل مصيبتني في ديني،
ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني.

اللهم هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك
ورضوانك، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني، وزكها وضعفها، وما عملت فيه
من سيئة فاغفر لي إياك غفور رحيم ودود. رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً،
وبمحمد ﷺ نبياً.

اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر
ما فيه، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، ومن بختات الأمور وفجأة
الأقدار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارفاً بطرق منك بخير يا رحمن
الدنيا والآخرة ورحيمهما، وأعوذ بك أن نزل أو نزل، أو اضل أو أضل، أو اظلم
أو أظلم، أو أجهل أو يجعل علي، عز جارك وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك،
وعظمت نعمائك.

أعوذ بك من شر ما بلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من
السماء وما يعرج فيها، أعوذ بك من حدة الحر، وشدة الطمع، وسورة
الغضب، وسنة العفلة، وتعاضلي الكلفة.

اللهم إني أعوذ من مباحاة الكثرين، والإزراء على القليلين، وأن أنصر
ظالماً، أو أخذ مظلوماً، وأن أقول في العلم بغير علم، أو عمل في الدين
بغير يقين.

اعوذ بك ان اشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم، اعوذ بعفوك
من عقابك، واعوذ برضاك من سخطك، واعوذ بك منك لا احصى ثناء
عليك، انت كما ائنت على نفسك.

اللهم انت ربى لا إله إلا انت، خلقتنى وأنا عبدك وابن عبدك، وعلى
عهدك ووعدك ما استطعت، اعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك على،
وأبوء بذنبي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً، وآخرها نجاحاً، وأوسطه فلاحاً
اللهم اجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره كرامة. أصبحنا وأصبح الملك
لله، والعظمة والكبرياء لله، والجبروت والسلطان لله، والليل والنهار وما سکن
فيهما لله الواحد القهار، أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى
دين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من
المشركين.

اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات،
والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد، الذى لم يلد لم يولد ولم
يكن له مكفواً أحد، يا حي يا قيوم، يا حي حين لا حى فى ديمومة ملكه
وبقائه.

يا حى محيى الموتى، يا حى مميت الأحياء، ووليت الأرض والسماء، اللهم
إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك لله لا إله إلا هو الحى
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعر
الأكرم، الذى إذا دعيت به أجبت، وإذا سئلت به أعطيت، يا نور النور، يا
مدبر الأمور، يا عالم ما فى الصدور، يا سميع يا قريب، يا مجيب الدعاء، يا
لطيفاً لما يشاء، يا رءوف يا رحيم.

يا كبير يا عظيم، يا الله يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام، الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وعنت الوجوه للحي القيوم، يا إلهي وإله كل شيء إنها واحدا لا إله إلا أنت.

اللهم إني أسألك باسمك يا الله الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وسعت كل شيء رحمة وعلما، كهيعص، حم، عسق، الر، حم، ن، يا واحد يا قهار، يا عزيز يا جبار، يا أحد يا صمد، يا ودود يا شفيق، يا غفور،

هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللهم إني أعوذ باسمك للكنون الخزون، للفرل السلام الطهر الطاهر القنوس القدس، يا دهر يا دهور، يا ديار، يا أبد، يا زل، يا من لم يزل ولا يزال ولا يزول، هو يا هو لا إله إلا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبل كل كون، يا كائن بعد كل كون.

يا مكونا لكل كون أهيا لشراها لكوناي أصبوت يا مجلى عظام الأمور، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، اللهم إني أعوذ بك من فتنة الدجال، وغلب القبر، ومن فتنة المحيا والمات.

اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمته وشر ما لم أعلم.

وأعوذ بك من شر سمعي وبصري، ولساني وقلبي، اللهم إني أعوذ بك من
 القسوة والغفلة، والنل والسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسوق والشقاق،
 والنفاق، وسوء الأخلاق، وضيق الأرزاق، والسمة والرياء، وأعوذ بك من الصمم
 والبكم، والجنون والجنام، والبرص وسائر الأسقام.

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عاقبتك، ومن حجارة
 نعمتك، ومن جميع سخطك. اللهم إني أسألك الصلاة على محمد وعلى آله،
 وأسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من
 الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب
 إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك
 ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ وأسألك مما استعاضك منه عبدك ونبيك
 محمد ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا
 أرحم الراحمين يا فيوم برحمتك استغيثه لا تكلى إلى نفسى طرفة عين،
 وأصلح لي شأني كله.

يا نور السموات والأرض، يا جمال السموات والأرض، يا عماد السموات
 والأرض، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا ضريح
 المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا منتهى رغبة الراغبين، والمرج عن
 الكربيين، وللروح عن الغوميين، ومجيب دعوة الضطرين، وكاشف السوء،
 وأرحم الراحمين، وإله العالمين، منزل بك لكل حاجة يا أرحم الراحمين.

اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقلني عشراتي، اللهم احفظني من بين
 يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقی، وأعوذ بك أن أغتال
 من تحتي.

اللهم إني ضعيف فقير، وخذ إلى الخير بناصيتي،
 واجعل الإسلام منتهى رضائي. اللهم إني ضعيف فقير، اللهم إني دليل
 فأعزني، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إنك تعلم سرى وعلائي، فأقبل معذرتي، وتعلم حاجتي
فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي.

اللهم إني أسألك إيماناً يباشِر قلبي، ويقيناً صادقاً، حتى أعلم أنه لن
يصيبني إلا ما كنت لي، والرضا بما قسمت لي، يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم يا هادي للضالين، ويا راحم للذائِبين، ومقبِل عِثرة العائِرين، ارحم
عبدك ذا الحِمْزِ العظيم، والسَّلامين كلهم اجمعين، واجعلنا مع الأحياء
الرزوقين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين آمين
يا رب العالمين.

اللهم عالم الخفيات، رفيع الدرجات، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من
عبادك، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذا الطول، لتأله إلا هو، أنت
الوكيل واليك المصير. يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع،
ولا تشتهيه عليه الأصوات، ويا من لا تغلظه اللسان ولا تختلف عليه اللغات، ويا
من لا يتيرم بالحاح للأمين، أنقذني برد عفوانك وحلاوة رحمتك.

اللهم إني أسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وعملاً متقبلاً، أسألك من خير
ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم، وأنت علام
الغيوب.

اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتك، ونعيماً لا ينفد، وقرّة عين الأبد، ومرافقة
نبيك محمد، وأسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقرب إلى حبك.

اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك أحييني ما كانت الحياة خيراً
لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي. أسألك خشيتك في الغيب والشهادة،
وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، ولذة النظر إلى
وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة.

اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول به بيني ومعصيتك ومن طاعتك ما يدخلني جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الوعود، حتى نجد لذة ما نطلب، وخوف ما منه نهرب.

اللهم ايسر وجوهنا منك الحياة، واملأ قلوبنا بك فرحاً، واسكن في نفوسنا من عظمتك مهابة، وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك احب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وداء الشكر بحسن العبادۃ.

اللهم اني اسالك بركة الحياة، وخير الحياه، واعوذ بك من شر الحياه، وشر الوفاة، واسالك خير ما بينهما، احيى حياة السعداء، حياء من تحب بقاءه، وتوفني وفاة الشهداء، وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرزاقين، واحسن التوابين، واحكم الحاكمين، وارحم الراحمين، ورب العالمين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم ما خلقت، واغفر ما قدرت، وطيب ما رزقت، وتمم ما انعمت، وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحضت، ولا تهتك ما سرت، فإنه لا إله إلا أنت، استغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومنك ل شغل بغير معاملتك.

اللهم اني استغفرك من كل لعبت إليك منه ثم عبت فيه. اللهم اني استغفرك من كل عقد عقبتك ثم لم أوف به.

اللهم اني استغفرك من كل نعمة انعمت بها علي فتقويت بها على معصيتك.

اللهم اني استغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك.

اللهم انى أسألك ان تصلى على محمد وعلى آل محمد، وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه، وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه.

اللهم احفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عما نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكر الذاكرين، ويا شاكر الشاكرين، بذكرك ذكرنا، وبفضلك شكروا، يا غياث يا معيث يا مستغاث يا غياث المستغيثين لا تكلنى إلى نفس طرفة عين هاهلك ولا إلى أحد من خلقك هاضيع، اكلانى مكلاءة الوليد، ولا تحل عني، وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين.

أنا عبدك وابن عبدك، لأصيتى بيدك جبار فى حكمك، عدل فى قضاؤك، ناهد فى مشيئتك، إن تعذب فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاي يا الله يا رب ما أنت له أهل، ولا تفعل اللهم يا رب يا الله ما أنا له أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه العفوة، هب لى ما لا يضرى، وأعطنى ما لا ينقصك، يا ربنا نفرغ علينا صبرا وقولنا مسلمات، وألحقنى بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وبسرارنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ربنا آتنا من ليلتك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدا، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة، والعصمة من العصية، وإفراغ الصبر فى الخلة، وإيناع الشكر فى النعمة، أسألك حسن الخاتمة.

وأسألك اليقين، وحسن المعرفة بك، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليه، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك، وأسألك حسن القلب إليك.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم ارجع عن أمة محمد فرجا عاجلا.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

اللهم اغفر لي ولوالدي ولئن تولينا وإرحمهما كما ربياني صغيرا، واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخواننا وخالاتنا وزوجاتنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والسلامين والسلامات، الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين، يا خير الغافرين.

ولما كان الدعاء مع العبادة، أحببنا أن نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو ببركته.

وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب الكي رحمه الله في كتاب قوت القلوب، وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة.

البدء بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء.

الباب الخمس في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلزم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة، لا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه، لنألا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء، فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجله أهل المعاملة وأرباب القلوب.

وقد نذب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك . ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى الفلحون، والآيتين وإلهم إله واحد، وآية الكرسي، والآيتين بعدها، وأمن الرسول، والآية قبلها، وشهد الله، وقل اللهم مالك الملك، وإن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض إلى المحسنين، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر.

وقل ادعوا الله الآيتين، وآخر الكهف من إن الذين آمنوا، وذا النون إذ ذهب مغاصباً إلى خير الوارثين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، سبحان ربك إلى آخر السورة.

ولقد صدق الله، وأول سورة الحديد إلى بذلت الصدور، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين، وهكنا بحمد مثله، ويكبر مثله، ويتمها مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فإذا فرغ من ذلك يشتغل بثلاوة القرآن حفظاً أو من الصحف، أو يشتغل بأنواع الألفكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم في هذا الوقت مكروه جداً، فإن غلبه النوم فليقم في مصلاه قائماً مستقبل القبلة.

فإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة، يتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدير القبلة، ففي إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة.

وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصي به الطالبين، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر .

وهذا الوقت أول النهار، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبنى أوقات النهار جميعاً على هذا البناء.

فإذا قارب طلوع الشمس ابتدئ بقراءة السبعات العشر، وهي من تعليم الخضر عليه السلام، علمها إبراهيم التيمي، وذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ، ويشال بالمداومة عليها جميع للتفرق في الأذكار والدعوات وهي عشرة أشياء، سبعة الفاتحة، والموثقان، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والصلاة سبعا.

اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وأجلاً في الدين والنفس والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم، جواد كريم، رؤوف رحيم .

وروي أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة.

وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم، وقيل لعله مكان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة .

فإذا هرع من السبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس للرمح .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب » .

ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى الركعتين، وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت.

وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أثراً ونوراً وروحاً وانساً إذا كان صادقاً، والذي يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا .

وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمن الرسول، والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية، وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليلته

ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ العوذتين فيها في كل ركعة سورة، وتكون صلاته هذه ليستعد بالله تعالى من شر يومه وليلته، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك.

وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجري به الليل والنهار، إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ويقول بعد الركعتين الأوليتين : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبحت مرتهاً بعملى، وأصبح امرئ بيد غيرى، فلا فقير أفقر منى، اللهم لا تشمت بى علوى، ولا تسئ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى، ولا تسلط على من لا يرحمنى.

اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تويل النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تووجب النقم .

ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه ونيلته، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق، وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصليها أما لكل أمر يريد.

ويقرأ في هاتين الركعتين: "قل يا أيها الكافرون"، وقل هو الله أحد، ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب، ويقول فيه كل قول وعمل أریده في هذا اليوم اجعل فيه الخير .

ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الأولى سورة الواقعة، وفي الأخرى سورة الأعلى، ويقول بعدها: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الأشياء إلي، وخشيتك أخوف الأشياء عندي، والقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك.

وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بنعيمهم فأقرر عيني بعبادتك، واجعل طاعتك في كل شيء مني يا أرحم الراحمين .

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين، يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن .

ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل في الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى، وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل، وهكذا ينبغي أن يفعل أبداً، لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين لقيه الله سوء المخرج.

ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقية الله سوء المدخل، بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها، وإن لم يكن في البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين .

وإن كان متفرغاً فاحسن اشغاله في هذا الوقت إلى الصلاة صلاة الضحى، فإن كان عليه قضاء صلى صلاته يوم أو يومين أو أكثر، ولا يصلى ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن.

فقد كان من الصالحين من يختم القرآن في الصلاة بين اليوم والليلة، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١) وامثال هذه الآية بقرا في كل ركعة آية منها، إما مرة أو يكررها مهما شاء .

ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة، وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة ركعة.

ومن لبس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فما باله يهطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى .

قال سهل بن عبد الله التستري: لا يكمل شغل قلب عبد الله الكريم وله في الدنيا حاجة .

إذا ارتفعت الشمس، وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصل الضحى، فهذا الوقت الفصل الأوقات لصلاة الضحى. قال رسول الله ﷺ «صلاة الضحى إذا رمست الفصال، وهو أن ينام المصيل في ظل أمه عند حر الشمس.

وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بح الشمس. وأهل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر.

ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى مما تلجأ إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه، وإلا فينبغي العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً، وقلباً وقالباً، وإلا فباطناً. وترتيب ذلك أنه يصلى ما دام منشراحاً ونفسه مجيبة.

هإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة .

هإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان، فهو أخف من القراءة

هإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه المراقبة، والمراقبة علم القلب ينظر الله تعالى إليه، فما دام هذا العلم ملازماً لقلبه فهو مراقب، والمراقبة عين الذكر والفضل.

هإن عجز عن ذلك أيضاً وتملكه الوسواس وتزاحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم السلام، وإلا فكثرة حديث النفس تقسى القلب بكثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك .

هإن سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصي حديث النفس .

والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر

ويمكن للطالب المجد أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى، وأقل من ذلك عشرون ركعة بصليها خفيفة، أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر.

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن .

قال سفيان: كان يحجبهم إذا قرعوا أن يناموا طلباً للسلامة .

وهذا النوم فيه فوائد، منها أنه يعين على قيام الليل .

ومنها أن النفس تسريح ويصفو النهار لبقية النهار والعمل فيه، والنفس إذا استراحت عانت جديدة. فبعد الانتباه من نوم النهار تجد في الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار.

فيكون للصادق في النهار نهاران يفتنهما بخدمة الله تعالى و الدؤب في العمل .

وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكراً أو مسبحاً أو تالياً.

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ ^(١) وقال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ^(٢)

قيل : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر) ومن أثناء الليل فسبح ^(٣) أراد العشاء الأخير

« وأطراف النهار » أراد الظهر والغروب لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة للغروب، قصار الظهر آخر الطرف الأول، والغروب آخر الطرف الآخر،

(١) سورة هود، آية رقم : ١١٤ .

(٢) سورة طه : آية رقم : ١٣٠ .

(٣) سورة الأعراف : آية رقم : ٥٥ .

هـيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول، وقد عاد بنوم النهار جديداً كما كان بنوم الليل .

ويصلى في أول الزوال قبل السنة والقرض أربع ركعات بتسليمه واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول لوقاتها، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفتن لوقت قبل التؤنتين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء، فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة.

ثم يستعد لصلاة الظهر، فإن وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة التفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه، ولا يشرع في صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائداً إلى حالة من الصفاء. والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس في الصلاة، يتكثرون بهيم من الاسترسال في المباح، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكثر.

وقد يكون ذلك بمجرد للخالطة والمجالس مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة، ولكن حسنات الأبرار سيئات القربين، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكثر، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى.

ودواء ما يحدث من الكثر بمجالسة الأهل والولد أن يكون في مجالسته غير راكن إليهم كل الركون، بل يشرق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة إلا أن يكون قوي الحال لا يحجبه الخلق عن الحق، فلا يتعقد على باطنه عقدة، فهو كما يدخل في الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استروح نفسه منغمراً بروح قلبه، لأنه يجالس

وبخالط، وعين ظاهرة ناظرة إلى الخلق، وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية، فلا ينعقد على باطنه عقدة .

وصلاة الزوال التي ذكرناها تحل العقد، وتهيئ الباطن لصلاة الظهر، فيقرأ في صلاة الزوال بمقتدر سورة البقرة في النهار الطويل، وفي القصير ما يتيسر من ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾^(١)

وهذا هو الإظهار، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرا الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر بحسن، وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر .

ثم إذا فرغ من صلاة الظهر بقرا الفاتحة وآية الكرسي، وبسبح ويحمد ويكبر ثلاثاً وثلاثين كمدا وصفنا، ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضاً كان ذلك خيراً كثيراً وفصيلاً عظيماً. ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئاً لله تعالى .

ثم يحبى بين الظهر والعصر كمدا يحبى بين العشائين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والراقبة.

ومن دام سهره بنام نومه خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر، ولو أحبه بين الظهر والعصر برصعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير.

وإن أراد أن يحبى هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين، ويستاك قبل الزوال إذا كان صائماً، وإن لم يكن صائماً فأى وقت تغير فيه الفم .

وفي الحديث «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» وعند القيام إلى المرائض يستحب.

قيل: إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً.

وقيل: هو خير، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين في صلاته في عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الأولى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١).

ثم في الثانية ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

ثم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾^(٣) إلى آخر السورة.

ثم ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآية، ثم ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(٤) الآية.

ثم ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾^(٥)، ثم ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾^(٦)

ثم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّيَ﴾^(٧).

ثم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا خَفِيَ وَمَا تُعَلِّنُ﴾^(٨) الآية

ثم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٩).

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠١.

(٢) سورة البقرة، آية رقم ٢٥٠.

(٣) سورة البقرة، آية رقم ٢٨٦.

(٤) سورة آل عمران، آية رقم ١٩٣.

(٥) سورة آل عمران، آية رقم ٥٢.

(٦) سورة الأعراف، آية رقم ١٥٥.

(٧) سورة يوسف، آية رقم ١٠١.

(٨) سورة إبراهيم، آية رقم ٢٨.

(٩) سورة طه، آية رقم ١١٤.

هم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ ^(١).

هم ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ^(٢).

هم ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^(٣).

هم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ^(٤).

هم ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾ ^(٥).

هم ﴿بَعْلَمُ حَافِيَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ^(٦).

هم ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ الآية من
سورة الاحقاف.

هم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ﴾ الآية ^(٧).

هم ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ ^(٨).

هم ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ ^(٩).

مهما يصل هليقرا بهذه الآيات وبالحفاظة على هذه الآيات هي الصلاة
مواظنا للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان. ولورد فرد آية

(١) سورة الانبياء : آية رقم ٨٧ .

(٢) سورة الانبياء : آية رقم ٨٩ .

(٣) سورة المؤمنون : آية رقم ١٨٨ .

(٤) سورة الفرقان : آية رقم ٧٤ .

(٥) سورة النمل : آية رقم ٩١ .

(٦) سورة غافر : آية رقم ٦٩ .

(٧) سورة الحشر : آية رقم ١٠ .

(٨) سورة المتحة : آية رقم ٤ .

(٩) سورة يوح : آية رقم ٢٨ .

من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجياً
لؤلاه وداعياً وتالياً ومصلياً .

والسلب في العمل واستيعاب اجراء النهار بلانفة وحلاوة من غير سامة
لا يصح إلا لعبد تزككت نفسه بكمال التقوى، والاستقصاء في الزهد في
الدنيا، وانتزع منه متابعة الهوى.

ومتى بقي على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يعلوم
روحه في العمل، بل ينشط وقتاً ويسام وقتاً، ويتعاقب النشاط والكسل فيه
لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا.

وإذا صح في الزهد والتقوى فإن ترك العمل بالجوارح لا يضر عن
العمل بالقلب، فمن رام دوام الروح واستحلاء النوب في العمل عليه بحسب
مادة الهوى، والهوى روح النفس لا يزول ولكن نزول متابعته. والنهي عليه
السلام ما استعاض من وجود الهوى ولكن استعاض من متابعته، فقال: « إصود
بك من هوى متبع »

ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس، ولكن استعاض من
طاعته فقال «وشح من طاع » .

ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعملو الحال، فقد
يكون متبعاً للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم.

وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والأكل وغير ذلك من
أقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا .

ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات، فإن أمكنه تجديد الوضوء
لكل فريضة كان أكمل وأتم، ولو اغتسل كان أفضل.

كذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة .

ويقرأ في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والعدديات والقارعة وألهاكم،
ويصلي العصر، ويجعل من قراءته في بعض الأيام والسماذ ذلت البروج،
وسمعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل، ويقرأ
بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والنباء وما يتيسر له من ذلك.

فإذا صلى العصر ذهب وقت التنقل بالصلاة، وبقي الأذكار والتلاوة.
والفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى
من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم الريدين.

هكذا صحت نية القائل والستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد
والداومة على الأذكار، وإن عدت هذه المجالسة وتعدرت فليتراوح بالتنقل
في أنواع الأذكار، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت
يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار.

ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء، وكره جمع من العلماء
تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازها المشايخ والصالحون .

ويقول كلما خرج من منزله بسم الله حسبي الله لا قوة إلا بالله، اللهم
إليك خرجت وأنت أخرجتنى، وليقرأ الفاتحة والعودتين، ولا يدع أن
يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو ثمرة أو لقمة، فإن القليل بحسن النية
كثير .

وروى أن عائشة رضي الله عنها أعطت السائل عنبه واحدة وهالت إن
فيها لثاقيل لز كثير .

وحاء في الخبر: كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته .

ويكون من ذكره من العصر إلى الغرب مائة لا إله الله وحده لا شريك
له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فقد ورد عن رسول الله
ﷺ أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عمل عشر رقاب .

وكتبته مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة سبحان الله والحمد لله، الكلمات.

ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وتحمده استغفر الله.

ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

ومائة مرة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد.

ومائة استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأساله التوبة.

ومائة مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

ورأيت بعض الفقهاء من القرب بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديره كل يوم لئلا يفسد عشرة مرة بأنواع الذكر .

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واليلة .

ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم واليلة ولحق مائة مرة بين اليوم واليلة هذا التسبيح: سبحان الله العلي الديان، سبحان الله شديد الأركان.

سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله السميع في كل مكان .

روى أن بعض الأبدال على شاطئ البحر فسمع في هذه الليلة: هذا التسبيح فقال من الذى اسمع صوته ولا أرى شخصه؟

فقال: أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر، اسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت.

فقلت: ما اسمك؟ فقال: مهليهيائيل، فقلت: ما ثواب هذا التسبيح؟

قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

فقال: سألتني عن شئ عظيم ما سألتني غيرك، هو لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله الأول والآخر الظاهر الباطن، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، من قالها عشراً حين يصبح وحين يمسي أعطى ست خصال.

فأول خصلة أن يحرس من إبليس وجنوده.

الثانية أن يعطى قنطاراً من الأجر.

الثالثة يرفع له درجة في الجنة.

الرابعة يزوجه الله من الحور العي.

الخامسة اثنا عشر ملكاً يستغفرون له.

السادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر.

ويقول أيضاً في هذا الوقت وفي أول النهار: اللهم أنت خلقتني، وأنت هديتني، وأنت تطعمني، وأنت تسقيني، وأنت تميتني، وأنت تحييני، أنت ربى لا رب لى سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، ويقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

ما شاء الله لكل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ويقول حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة، ويقرأ التسبيحات قبل الغروب، ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو التسبيح والاستغفار.

ويقرأ عند الغروب أيضاً والشمس والليل والعونتين، ويستقبل الليل كما استقبل النهار. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾^(١)

فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغي أن يكون العبد بين الذكر والشكر، يعقب أحدهما الآخر.

ولا يتخللها شيء، كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء. والذكر جميعه أعمال القلب، والشكر أعمال الجوارح. قال الله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(٢) والله الموفق والمعين.

(١) سورة الفرقان : آية رقم ٦٢.

(٢) سورة سبأ : آية رقم ١٣.

الباب الحادي والخمسون في آداب المريـد مع الشيخ

لـدب المريـدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب، وللقوم هي ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

روى عن عبد الله بن الزبير قال: قدم وفد على رسول الله ﷺ من بني تميم، فقال أبو بكر: أمر القمطاع بن معبد، وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أريت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافتك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما، لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه. وقال جابر: كان ناس يضحون قبل رسول الله، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله ﷺ.

وقيل: كان قوم يقولون: لو أنزل هي مكنا وسكنا، فكره الله ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أكره أن تصوموا قبل أن يصوم نبيكم.

وقال الكلبي: لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به.

وهكذا لدب المريـد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار، لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب الشيخة.

وقيل: لا تقدمكوا ولا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو الدرداء قال: كنت أمشي أمام أبي بكر، فقال لي رسول الله ﷺ تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة ؟

وقيل : نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك .

وهكذا ألب المرید في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت، ولا يقول شيئاً بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له في ذلك .

وشأن المرید في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزاقاً يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله.

وتطلعه إلى القول برده عن مقام الطلب، والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك حناية المرید .

وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهمة من حالة يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل بهادته بما يريد.

لأن الشيخ يكون مستنطقاً نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين برقع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم، فيكون لسانه وقلبه في القول والنكطق مأخوذتين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه.

لأن الشيخ يعلم تطالع الطالب إلى قوله واعتداده بقولسه، والقول
كأنه يدر يقع في الأرض، فإذا كان البذر فأسناً لا ينبت، وهساد الكلمة
بدخول الهوى فيها.

فالشَّيْخُ يَنْفَى بَذْرَ الْكَلَامِ عَنْ شَوْبِ الْهَوَى وَيُسَلِّمُهُ إِلَى اللَّهِ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ
لِلْعَوْنَةِ وَالسَّلَامَةِ نَعَمْ يَقُولُ فَيَكُونُ كَلَامُهُ بِالْحَقِّ مِنَ الْحَقِّ لِلْحَقِّ .

فالشَّيْخُ لِلْمُرِيدِينَ آمِينَ الْإِلَهَامُ كَمَا أَنَّ جَبْرِيلَ آمِينَ الْوَحْيُ، فَكَمَا لَا
يَخُونُ جَبْرِيلُ فِي الْوَحْيِ لَا يَخُونُ الشَّيْخُ فِي الْإِلَهَامِ، وَكَمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى، فَالشَّيْخُ مُقْتَدِرٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَظَاهِرٌ
وَبَاطِنٌ، لَا يَتَكَلَّمُ بِهَوَى النَّفْسِ.

وهوَى النَّفْسِ فِي الْقَوْلِ بَشِيئَتَيْنِ:

أحدهما: طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه، وما هذا من شأن
الشيوخ.

والثاني: ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب، وذلك خيانة عند
المحققين. والشَّيْخُ فِيمَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ رَاقِدُ النَّفْسِ، تَشْعَلُهُ مَطَالَعَةُ نَعَمِ
الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، فَاقْدِ الْحِظَّ مِنْ فَوَائِدِ ظُهُورِ النَّفْسِ بِالْإِسْتِحْلَاءِ وَالْعَجَبِ.

فَيَكُونُ الشَّيْخُ لَمَّا يَجْرِي بِهِ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ مُسْتَمْعاً كَأَحَدِ
الْمُسْتَعْمِينَ

وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُو السَّعُودِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْأَصْحَابِ بِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ،
وَكَانَ يَقُولُ: أَنَا فِي هَذَا الْكَلَامِ مُسْتَمِعٌ كَأَحَدِكُمْ، فَأَشْكُلُ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ
الْحَاضِرِينَ.

وَقَالَ: إِذَا كَانَ الْقَائِلُ هُوَ يَعْلَمُ مَا يَقُولُ كَيْفَ كَمَا مَسْتَمِعٌ لَا يَعْلَمُ
حَتَّى يَسْمَعَ مِنْهُ، فَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَأَى لَيْلَتَهُ فِي النَّامِ كَانَ قَائِلاً يَقُولُ لَهُ:

ليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في مخلاته والدر قد حصل معه، لكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل. ففهم بالتمام إشارة الشيخ في ذلك .

فأحسن أدب الريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يهائله الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلًا .

وقيل أيضاً في قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(١) لا تطلبوا منزله وراء منزلته. وهذا من محاسن الأدب وأعزها .

وينبغي للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية، ويتمنى للشيخ عزيز للنبج وشرائب الواهب.

وبهذا يظهر جوهر الريد في حسن الإرادة، وهذا يعز في الريدتين، فأرادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه، ويكون قائماً بأدب الإرادة .

قال السري رحمه الله ، حسن الأدب درجمان العقل .

وقال أبو عبد الله بن حنيفة قال لي رويم، يا بني اجعل عملك ملجأً وأدبك دليلاً .

وقيل : التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول .

ومن تأديب الله تعالى أصعب رسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾^(٢) .

(١) سورة الحجرات : آية رقم ١١ .

(٢) سورة الحجرات : آية رقم ٢٠ .

كان ثابت بن قيس بن شماس في أدنه وقر، وكان جمهورى الصوت، فكان إذا تكلم إنساناً جهر بصوته.

وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديباً له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبة الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجرجاني قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن النسي.

قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل قال حدثنا نافع بن عمر بن جميل الحمصي قال حدثني حابس بن أبي مليكة قال حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على ﷺ .

فقال أبو بكر استعمله على قومه، فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله فتكلمما عند النبي ﷺ حتى علت أصواتهما.

فقال أبو بكر لعمر ، ما أردت إلا خلافي، وقال عمر ما أردت خلافتك، فأنزل الله تعالى الآية، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم

وقيل ، لما نزلت الآية إلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي إلا ككاه السرار. فكفها ينبغي أن يكون للرب مع الشيخ لا يفسط برقع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ.

فرفع الصوت تهيجاً جنبات القلب الوقار، والوقار إذا سكن القلب عقل الإنسان ما يقول .

وقد ينازل باطن بعض الريد من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع الريد أن يشبع النظر إلى الشيخ. وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو الجيب السهرورودي رحمه الله فيترشح جسدي عرقاً.

وكنيت أمني العرق لتخفف الحمى، فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على، ويكون في قدومه بركة وشفاء.

وكنيت ذات يوم في البيت خالياً، وهناك منديل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به، فوقع قدمي على المنديل اتفاقاً، فتألم باطني من ذلك وهالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ، وانبعث من باطني من الاحترام ما أرجو بركته.

قال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل في ذلك: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تبدأوه الخطاب، ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾^(١)، أي لا تغلطوا له في الخطاب، ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضاً، ولكن فخموه واحترموا، وقولوا له يا نبي الله، يا رسول الله.

ومن هذا القبيل يكون خطاب الريد مع الشيخ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب.

ولما مكثت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج، وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة، وهي تحت وقتها صاغها كنف النفس وهواها، فإذا امتلأ القلب حرمة ووقاراً يعلم اللسان العبارة.

وروى لما نزلت هذه الآية بعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمر به عاصم بن عدي فقال: ما يبكيك يا ثابت؟

قال: هذه الآية لتخوف أن تكون نزلت في ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١) وأنا رفيع الصوت على النبي ﷺ أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار.

فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال لها إذا دخلت بيت فرسي فسد على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفتها.

وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضي عني رسول الله ﷺ، فلما أتى عاصم النبي وأخبره بخبره، فقال الذهب قادعه، فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له إن رسول الله يدعوك، فقال لكسر الضبة، فأتى رسول الله ﷺ، ما يبكيك يا ثابت؟

فقال: أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت في، فقال له رسول الله: أما ترضى أن تعيش عبداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾^(٢).

قال أنس: كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم المامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار والهزمت طائفة منهم، فقال لك هؤلاء وما يصنعون.

(١) سورة الحجرات، آية رقم ٢٠.

(٢) سورة الحجرات، آية رقم ٢٠.

ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة، ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتنا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليه درع، فراه رجل من الصحابة بعد موته في المنام، فقال له أعلم إن فلانا رجلاً من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو في ناحية من العسكر وعنده فرس يستان في طيه وقد وضع على درعى برمة.

فأتى خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى، وأتى أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له إن على ديناً حتى يقضى عني، وفلان من عبيدى عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد النزع والفرس على ما وصفه، فاسترد النزع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته.

قال مالك بن أنس رضى الله عنهما: لا أعلم وصية أجيّزت بعد موت صاحبها إلا هذه . فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وادبه مع رسول الله ﷺ .

فليعتبر المرید الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله، وأن الذى يعتمد مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ، واعتمده مع رسول الله ﷺ.

فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾^(١).

أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالمار فيخرج خالصة، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب، فهكذا ينبغى أن يكون المرید مع الشيخ.

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر، وفى مجالسة السادات من الأولياء، يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير فى الأولى والعقبى، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾^(٢).

(١) سورة الحجرات، آية رقم ٢.

(٢) سورة الحجرات، آية رقم ٥.

ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاؤا إلى رسول الله ﷺ فنادوا يا
محمد أخرج إلينا فإن مدحنا زين وضمنا شين، قال فسمع رسول الله ﷺ
فخرج إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين، هي قصة
طويلة.

وكانوا اتوا بشاعرهم وخطيبهم، فخلبهم حسان ابن ثابت وشبان
المهاجرين والأنصار بالخطبة.

وفي هذا تأنب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه، وتركه
الاستعجاله وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر
بالفقر فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس
معه ويرجع إلى خلوته.

وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه، فيخطر
لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى المقير وخروجه لغير الفقير،
فانتهى ما خطر للمقير إلى الشيخ، فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو
أهل وليس عنده اجنبيه، فتكتفى معه بموافقة القلوب وتقنع بها عن
ملاقاة الظاهر بهذا القدر.

وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر،
فمتى لم يعرف حقه من الظاهر أستوحش، فحق للمريد عمارة الظاهر
والباطن بالأدب مع الشيخ.

قيل لأبي منصور المغربي، كم صحبت أبا عثمان ؟ قال: خدمته لا صحبتته، فالصحبة مع الإخوان والأقران، ومع الشايخ الخدمة .

وينبغي للمريد أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشايخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وكيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى.

وإذا أخيره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره . فما ينكره المريد لقلة علمه بقيقة ما يوجد من الشايخ، فالشايخ في كل شيء عنده بلسان العلم والحكمة .

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد، فأجابه الجنيد، فعارضه في ذلك، فقال الجنيد: (فإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) .

وقال بعض الشايخ : من لم يعظم حرمة من تاب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل، من قال لأستاذه لا ، لا يفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى.

قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ " اتركوني ما تركتكم ، وإذا حدثتكم فخذوا مني، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " .

قال الجنيد رحمه الله: رأيت مع أبي حفص النيسابورى إنساناً كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه: من هذا؟

فقيل لى، هذا إنسان يصحب أبى حفص ويخدمنا، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له، واستلمن مائة ألف أخرى أنفقها عليه، ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة.

وقال أبو يزيد البسطامي: صحبت أبى على السندی فكنيت القنّة ما يقيم قرضه، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفاً .

وقال أبو عثمان: صحبت أبى حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى، فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أوى ظهري إليه، فأنصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه.

واعتقدت أن أحضر لنفسي بثراً على بابيه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذن، فلما رأى ذلك منى قربي وقبلى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله.

ومن آدابهم الظاهرة: أن المرید لا يبسط مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة، فإن المرید من شأنه التبتل لخدمة، وهى السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز .

ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز . وهيبة الشيخ تملك المرید عن الاسترسال فى السماع وتقيدته، واستعراقه فى الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب أن لا يكتفى عن الشيخ شيئاً من حاله ومواهب الحق عنده، وما يظهر له من حكرامة وإجابة، ويكشف للشيخ عن حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحى من كشفه بذكره لإيماء وتعرضاً فإن المرید متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعويضاً.

يصير على باطنه منه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول . ومن الأدب أن لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ فيهم بتأديبه وتهذيبه، وأنه أقوم بالتأديب من غيره.

ومنى كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته، ولا ينمذ القول فيه، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه، فإن الريد كلما أقر تفرّد الشيخ بالشيخة عرف فضله وقويت محبته. والمحبة والتألف هو الواسطة بين الريد والشيخ.

وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال، لأن المحبة علامة التعارف، والتعارف علامة الجنسية، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا أنس بن أسلم قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ قال : " من علم عبداً آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه، فمن فعل ذلك فقد قصم عروة من عرى الإسلام " .

ومن الأدب أن يراعى خطوات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها ولا يستحق كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمداً على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراة .

قال إبراهيم بن شيبان: كنا نصحب أبا عبد الله الغرّبي ونحن شبان وبسافر بنا في البراري والقفلات، وكان معه شيخ اسمه حسن، وقد صحبه سبعين سنة.

فكان إذا جرى من أحدنا خطأ، وتغير عليه حال الشيخ، نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان.

ومن أدب الريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ، فإن الشيخ علمه أو سع وبابه المفتوح إلى الله أكبر، فإن كان واقع الريد من الله تعالى بواقعه الشيخ ويمضيها له، وما كان من عند الله لا يختلف، وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ، ويكتسب الريد علماً بصحة الوقائع والكشوف.

فالريد لعله في واقعه يخامره كمون إرادة في النفس، فيتشبه كمون الإرادة بالواقعة، مناماً كان ذلك أو يقظه، ولهذا سر عجيب، ولا يقوم الريد باستئصال شأفة الكامن في النفس، وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كمون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ.

فإن كان من الحق يترهن بطريق الشيخ، وإن كان ينزع واقعه إلى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة الريد، ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إيوانه إلى جناب الحق، وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ أن الريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالة الشيخ والهجوم عليه، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له، ويساع كلامه وقوله متفرغ.

فكما أن للدعاء أوقافاً وأدباً وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى، فللقول مع الشيخ أيضاً أدب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب.

وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ في مخاطبته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْمُ الرُّسُولِ فَقَلِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَوْنَكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(١) يعني أمام مناجاتكم .

قال عبد الله بن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ فأكثرُوا حتى شقوا عليه وأحفوه بالسئلة، فأدبهم الله تعالى وقطعهم عن ذلك، وأمرهم أن لا ينتجوه حتى يقدموا صفة .

وقيل، كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى ذكره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم، فأمر الله تعالى بالصدقة عند الحاجة، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته.

فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئاً، وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ونزلت الرخصة، وقال تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ خُجُوتَكُمْ صَدَقْتُمْ﴾^(١).

وقيل، لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب فقدم ديناراً فصدق به. وقال علي: هي كتب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي.

وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية دعا علياً وقال ما ترى في الصدقة كم تكون؟ ديناراً قال علي: لا يطيقونه، قال: كم؟ قال علي: تكون حبة أو شعيرة، فقال رسول الله ﷺ إنك لزهيد.

ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية. وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدقة وما فيه من حسن الألب وتقيد اللفظ والاحترام ما نسخ والفائدة باقية.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا مطلب بن شعيب.

قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا ابن نهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعائلنا حقه.

فاحترام العلماء توفيق وهدية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق.

(١) سورة العنكبوت: آية رقم ١٨.

الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يعتمد به مع الأصحاب والتلامذة

أهم الأدب أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام، محبة للاستتباع.

فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه والسترشدين بحسن الظن وصلح الإرادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى، والنفوس محبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة، وفي الخمول السلامة.

فإذا بلغ الكتاب أجله، وتمكن العبد من حاله، وعلم بتعريف الله لإياه أنه مراد بالإرشاد والتعليم للمريدین، فيكلمهم حينئذ بكلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه. وحكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى في معناه.

ويكثر اللجوء إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه، ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول، لا تكلم أحداً من الفقراء إلا في أوصفي أوقاتك، وهذه وصية نافعة.

لأن الكلمة تقع في سمع المرید الصادق كالحبة تقع في الأرض ، وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع، وفساد حبة الكلام بالهوى، وقطرة من الهوى تكثر بحراً من العلم .

فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد، فيكون ناظراً إلى الله مصغياً إليه، متلقياً ما يرد عليه، مؤدياً للأمانة فيه .

ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال الريد، ويتفرس فيه بنور الإيمان، وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده. فمن الريدتين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار.

ومن الريدتين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق القربين المرادين بمعاملة القلوب والعاملات السنية، ولكل من الأبرار والقربين مبادئ ونهديات، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن، يعرف كل شخص وما يصلح له.

والعجب أن الصعراوى يعلم الأرضى والفروس، ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعه يعلم منافع صنعته ومضارها.

حتى المرأة تعلم قطنها وما يأتى منه من الغزال ودقته وغلظته، ولا يعلم الشيخ حال الريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من كان يأمره بالاتفاق، ومنهم من أمره بالإمساك، ومنهم من أمره بالكسب، ومنهم من قررره على ترك الكسب كأصحاب الصفة.

فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد، فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة، لأنه مبعوث لإذبات الحجة وإيضاح المسحجة يدعو على الإطلاق، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ أن يكون به خلوة خاصة، ووقت خاص، لا يسعه فيه معاناة الخلق، حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته، ولا تدعى نفسه قوة ظناً منها أن استدامه الخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه، وأنه غير محتاج إلى الخلوة.

فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قهيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها، وأوقات يخلو فيها. فطبع البشر لا يستعنى عن السياسة، قل ذلك أو أكثر، لطف ذلك أو كثف.

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب، اتخذ ذلك رأس مآله، واغتر بطيبة قلبه، واستيرسل في المازحة والمخالطة، وجعل نفسه مناجاً للبطالين بلقمة نوكل عنده، وبرفق يوجد منه، فبقصده من ليس قصده الدين، ولا بغيته سلوك طريق للتقين.

فأفتتن وأفتن، وبقي حطة القصور، ووقع في دائرة الفتور، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى، وتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقلبه، فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع، وفي كل حركة بين يدي الله خضوع.

وإنما دخلت الفتنة على الغرورين الدعين للقوة والاسرسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس، واغترلهم بيسير من الوهبة، وقلة تاديبهم بالشيوخ.

كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه: لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم.

فإذا رأى الفضل في الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب فتكون جلوته في حماية خلوته، وجلوته مزيداً لخلوته.

وهي هذا سر، وذلك أن آدمي ذو تركيب مختلف، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه متردد بين السفلى والعلوى، ولنا فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق، ولهذا كان لكل عاقل فترة.

والفترة قد تكون تارة في صورة العمل، وتارة في عدم الروح في العمل، وإن لم تكن في صورة العمل ففي وقت الفترة للمريدين والسالكين تضییع

واستروح للنفس، وركون إلى البطالة . فمن بلغ رتبة لليخة انصرف قسم
فترته إلى الخلق، فأفلح الخلق بقسم فترته.

وماضاع قسم فترته كضياعه في حق الريدنين، فالريد يعود من
المرتة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله، والشيخ بكتسب العضيلة
من نفع الخلق بقسم فترته. ويعود إلى لوطن خلوته وخاص حاله بنفس
مشرئية، أكثر من عود الفقير بحلة لرائته من فترته.

فيعود من الخلق إلى الخلوة، منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور،
وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قائمة بحلة شغفها إلى دار
القرار.

ومن وظيفة الشيخ حسن حلقه مع أهل الإرادة والطلب، والنزول من
حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ، واستعماله التواضع .

حكى الرافى قال: كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من القراء
جلوساً، فدخل الزقاق، فقام عند أسطوانة بركة، فقلنا يفرغ الشيخ منهم
صلاته ونقوم نسلم عليه.

فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا، فقلنا: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ،
فقال: ما عذب الله قلبي بهذا قط، يعنى ما تقيدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ النور إلى حال الريدنين من الرفق بهم وبسطهم.

قال بعضهم : إذا رأيت الفقير الله بالرفق ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق
يؤنسه والعلم يوحشه.

هإذا فعل الشيخ هذا لعنى من الرفق يتخرج للريد بركة ذلك إلى
الانتفاع بالعلم، فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ التعطف على الأصحاب، وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض، ولا يترك حقوقهم اعتماداً على أرائهم وصدقهم .

قال بعضهم: لا تصيع حق أخيك بما بينك وبينه من الودعة .

وحكى عن الجريري قال، وافيت من الحج فابتلت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لا أشق عليه^(١)، ثم أتيت منزلي، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفي، فقلت يا سيدي إنما ابتلت بالسلام عليك لكيلا تتعب في المجيء إلى ههنا، فقال لي : يا أبا محمد هذا حقك وذلك قصتك .

ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض السترشدين ضعفاً في مراعاة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة أن يرفقوا به ويوقعوه على حد الرخصة.

ففي ذلك خير كثير، وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتربى في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابي: كان شاب يعرف بإبراهيم الصانع، وكان لأبيه نعمة، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القرنسي، فربما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم.

فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول: هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن ترفق به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المرید وخدمته والارتفاق من جانبهم وجه من الوجوه، لأنه جاء الله تعالى، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوحه الله تعالى، فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات .

(١) عبارة في الأصل غير واضحة وما كتبتناه يقتضيه السياق.

وقد ورد: ما تصدق متصدق بصدقة لأفضل من علم يبثه في الناس .

وقد قال الله تعالى: تنبيهاً على خلوص ماله وحراسته من الشوائب: ﴿ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ ^(١) ﴾ .

فلا ينبغي للشيخ أن يتطلب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه .

أو صلاح يترأى للشيخ في حق الريد بذلك، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على الريد، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ .

قال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝ ^(٢) يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝ ^(٢) ﴾ ^(١) معنى يحضكم أي يجهدكم ويبلغ عليكم .

قال قتادة: علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضغان، وهذا تاديب من الله الكريم، والأدب لله .

قال جعفر الخلدي: جاء رجل إلى الجنيد ولراد أن يخرج عن ماله ككاه ويجلس معهم على الفقر .

فقال له الجنيد: لا تخرج من مالك ككاه أحبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل، وتقوت بما حبست، واجتهد في طلب الحلال، لا تخرج كل ما عندك، فليست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملاً تثبت .

(١) سورة الإنسان، آية رقم ٩ .

(٢) سورة محمد، آية رقم ٣٧ .

وقد يكون الشيخ بعلم من حال الريد أنه إذا خرج من شيء يكسبه من الحال مالا يتصلع به إلى المال.

فحينئذ يجوز له أن يفسح لريد في الخروج من المال كما فسخ رسول الله ﷺ لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيخ: إذا رأى من بعض الريدلين مكروهاً أو علم من حاله اعوجاجاً، أو أحسن منه بدعوى، أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم، ويكشف عن وجه الذممة مجملًا.

فتحصل بذلك الفائدة لكل، فهذا أقرب إلى التدورة وأكثر ائثاراً لتألف القلوب.

وإذا رأى من الريد تقصيراً في خدمة نبيه إليها، تعمل تقصيره، ويعفو عنه، ويعرضه على الخدمة بالرفق واللين .

وإلى ذلك نسب رسول الله ﷺ هبما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه قال أنا أبو نصر الثرياقى قال قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس الحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا رشدين بن سعد بن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليل الفجرى عن عبد الله بن عمر

قال: جاء إلى النبى عليه السلام فقال يا رسول الله: كم أعفو عن الخادم؟ قال: بكل يوم سبعين مرة .

وأخلاق الشايخ مهلبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر ونهى وانكر وأوجب .

ومن جملة مهام الأدب حفظ أسرار المريدين فيما يكشفون به
ويمنحون من أنواع المنح، هسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه، ثم يحقر الشيخ
فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب.

أو شئ من خوارق العادات، ويعرفه أن الوقوف مع شئ من هنا يشغل
عن الله ويسد باب الزيد، بل يعرفه أن هذه نعمة شكر، ومن ورانها نعم لا
تحصى، ويعرفه أن شأن المريد طلب للنعم لا للنعمة، حتى يبقى سره
محفوظاً عند نفسه وعند شيخه، ولا يذيع سره.

فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر
يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال . وسبب إذاعة السر أن
للإنسان قوتين أخذخ ومعطية.

وكلتاها تتشوف إلى الفعل المختص بها، ولولا أن الله تعالى وكل
المهطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار فكامل العقل كلما طابت القوة
الفعل فيها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها، فيحل حال الشيوخ
من إذاعة الأسرار لرزاة عقولهم.

وينبغى للمريد أن يحفظ سره من به، وفى ذلك صحته وسلامته،
وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدرك المريدين الصادقين فى موردهم
ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضى للصحبة وجود الجنسية، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف.

فالدعاء بأعم الأوصاف كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض.

والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض.

ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض، وكميل أهل العصية بعضهم إلى بعض .

فإذا علم هذا الأصل، وإن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى.

فلتفقد الإنسان نفسه عند الليل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذي يميل به إلى صحبته، ويرن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع.

فإن رأى أحواله مسودة فليبشر نفسه بحسن الحال، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له في مرآة أخيه جنال حسن الحال.

وإن رأى أفعاله غير مسودة فيرجع إلى نفسه باللائمة والانتهام، فقد لاح له مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد، فإنهما إذا اصطحبا ازداد ظلمة واعواجاجاً.

ثم إذا علم من صاحبه الذي مال إليه حسن الحال، وحكم لنفسه بحسن الحال، طالع ذلك في مرآة أخيه.

فلنعلم أن الليل بالوصف الأعم مركزوز في جبلته، والليل بطريقة واقع وله بحبه أحكام، وللنفس بسببه سكون ورككون، فيسلب الليل بالوصف الأعم جدوى الليل بالوصف الأخص.

ويصير بين التصاحبين استرواحات طبيعية، وتلذذات جبلية، لا يفرق بينها وبين خلوص الصعبة لله إلا العلماء الزاهدون .

وقد يفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذرهم، وأهل الصلاح غره صلاحهم فعال إليهم بحسبة الصلاحية.

ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية، حالت بينهم وبين حقيقة الصعبة لله، فاحتسب من طريقهم الفتور في الطلب عن بلوغ الأرب . فلننته الصادق لهذه الدقيقة، وبأخذ من الصعبة أصفى الأقسام، وينز منها ما يسد في وجهه للرام.

قال بعضهم: هل رأيت شراً قط إلا ممن تعرف .

ولهذا المعنى، أنكر طائفة من السلف الصعبة، وراوا الفضيلة في العزلة والوحدة كإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص .

وحكى عنه أنه قيل له: جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه؟ قال: لأن ألقى سبعا ضارياً أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن أدهم.

قال: لأنى إذا رأيته أحسن له كلامي، وأظهر نفسي بإظهار أحسن أحوالها، وفي ذلك الفتنة.

وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها، وهنا واقع بين التصاحبين إلا من عصمه الله تعالى.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا
الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة قال
أنا عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو لسمان أحمد بن محمد
الخطابي قال أنا محمد ابن بكر بن عبد الرزاق.

قال حلقنا سليمان بن الأشعث قال حلقنا عبد الله ابن مسلمة عن
مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال
: قال رسول الله ﷺ " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعاب
الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن " .

قال الله تعالى: إخباراً عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾^(١) ستظهر بالعزلة على قومه.

وقيل: العزلة نوعان: هريضة وهضيلة.

فالهريضة العزلة عن الشر وأهله، والهضيلة عزلة الفصول وأهله.

ويجوز أن يقال: الخلوة غير العزلة، فالخلوة من الأغيار، والعزلة من
النفس وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة
قليلة الوجود.

قال أبو بكر الوراق: ما ظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه
السلام إلى يومنا هذا، وما سلم إلا من جانب الخلطة .

وقيل: السلامة عشرة أجزاء، تسعة في الصمت، وواحدة هي العزلة .

وقيل: الخلوة أصل والخلطة عارض، فليزوم الأصل ولا يخالط إلا بقدر
الحاجة، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة، وإذا خالط يلزم الصمت، فإنه أصل
والكلام عارض.

ولا يتكلم إلا بحجة، فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم .

والأخبار والآثار في التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة، والكتب بها مشحونة، واجمع الأخبار في ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبي سليمان قال حدثنا أحمد بن سلمان النجاد، قال حدثنا محمد بن هونس الكريمي، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمي، قال حدثنا مسلم ابن سالم.

قال حدثنا السري بن يحيى، عن الحسن، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ "لَتَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُسَلِّمُ لَذَى دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ هَرَبَ بَدِينَهُ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَى قَرِيبَةٍ، وَمَنْ شَاهَقَ إِلَى شَاهَقٍ، وَمَنْ حَجَرَ إِلَى حَجَرٍ، كَالنَّعْلِ الَّذِي يَرُوحُ

قَالُوا وَمَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قال: إذا لم تنل للعيشة إلا بمعاصي الله، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزوج؟

قال: إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده.

فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته.

قَالُوا وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَعْمُرُونَهُ بِضَيْقِ الْعَيْشَةِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يَطِيقُ حَتَّى يَوْرِدُوهُ مَوْرِدُ الْهَلَكَةِ .

وقد رغب جمع من السلف في الصحبة والأخوة في الله، ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخواناً، فقال سبحانه وتعالى:

وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِرِغْمَتِهِ إِخْوَانًا^(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِتَضَرُّعٍ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ^(٢)﴾.

وقد اختار الصحبة والأخوة في الله تعالى سعيد بن المسيب، وعبد الله
ابن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطل، ويكتسب الإنسان بها علم
الحوادث والعوارض .

قيل، أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات، ويتصلب الباطن برزين
العلم، ويتمكن الصدق بطريق هبوب الآفات، ثم التخلص منها بالإيمان.

ويقع بطريق الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب
، وتسروح الأرواح بالنشام، وتتفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى، وصير مثالها
في الساهد كالأصوات إذا اجتمعت خرفت الأجرام، وإذا نفرنت قصرت عن
بلوغ المرام .

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ "لِلْؤْمَنِ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ" .

وقال الله تعالى: مَخْرَجًا عَمَّنْ لَا صَدِيقَ لَهُ، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ^(٣)
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ^(٤)﴾.

والحميم في الأصل الهميم إلا أنه أبدلن الهاء بالحاء لقرب مخرجيهما، إذ
هما من حروف الحلق، والهميم مأخوذ من الاهتمام، أي يهتم بأمر أخيه،
فالاهتمام بهمهم الصديق حقيقة الصلقة .

(١) سورة آل عمران، آية رقم: ١٠٢ .

(٢) سورة الأنفال، آية رقم: ٦٢، ٦٣ .

(٣) سورة الشعراء، آية رقم: ١٠٠، ١٠١ .

وقال عمر: إذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك.

وقد قال القائل،

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأبن ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: يا داود مآلى لراك منتبذاً وحداً؟

قال: إلهى قلبت الخلق من أجلك.

فأوحى الله إليه يا داود كمن يقظاناً، مرتاداً لنفسك إخواناً، وكل خدن لا يوافق على مسرتى فلا تصعبه فإنه عدو يقسى قلبك، ويباعدك منى.

وقد ورد فى الخبر: إن أحبكم إلى الله الذين يألون ويؤلفون، فالؤمن ألف مألوف. وهى هذا دقيقة، وهى أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف، فلا يكون ألماً مألواً.

فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلى وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة وبقينا، وارزن عقلاً، واتم اهلية واستعداداً، وهكذا أوفر الناس حظاً من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء، واتم الجميع فى هذا نهينا صلوات الله عليه.

وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة أكثر تبعاً، ونبيناً ﷺ كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعاً وقال: "تناصكحوا تكثروا فإنى مكاتر بكم الأمم يوم الأمم".

وقد نهى الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ فقال "لو كنت حقاً غلبت القلب لا تفضوا من حولك".

وإنما طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء، ولهذا المعنى حب إلى رسول الله ﷺ الخلوة في أول أمره، وكان يخلو في غار حراء، ويتحنن النبال ذوات العند.

وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه ألفاً مألوفاً، وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف، فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة، وهذا خطأ.

وسر طلب العزلة من هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأفضل ما أسلفنا في أول الباب أن في الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف الأعم.

فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم، لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تالف الأرواح، فإذا وفوا للتصفية حققوا شربت الأرواح.

إلى جنسها بالتألف الأصلي الأول، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجيلة من الآفة للكلمة ألفة مألوفة، فصارت العزلة من أهم الأمور عند من يالف فيؤلف.

ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل ألف مألوف حتى يذهب العلط عن الذي غلط في ذلك ودم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصفة وحقيقة العزلة، فصارت العزلة مرغوباً فيها في وقتها، والصحة مرغوباً فيها في وقتها.

قال محمد بن الحنفية رحمه الله: ليس بحكيم من لم يعاشر بالعروف من لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله له منه فرجاً.

وكان بشر بن الحارث يقول: إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه.

فالأنيس يهينه الله للصديقين رفقا من الله تعالى وذولبا للعبد معجلا .
والأنيس قد يكون مفيدا يكون كالمشايع، وقد يكون مستفيدا كالريدين.

الصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس، فإن كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به، وإن كان غير قاصر يفيض الله تعالى له من يؤنسه من الريدين.

وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم، بل هو بالله ومن الله وفي الله .

روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال " للتحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء، في رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرقون على أهل الجنة يضيئ حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا.

فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى التحابين في الله عز وجل، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم هؤلاء التحابون في الله عز وجل .

وقال أبو يريس الخولاني لعائذ بنتي أحيك في الله، فقال له أبشر ثم أبشر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفرع الناس ولا يفرعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: للتحابون في الله عز وجل .

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال " يقول الله عز وجل،
حققت محبتي للمتحابين في، والتبادلين في، والتصادقين في " .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قالنا أحمد بن
الحسين ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الحامل قال أنا أبو
القاسم عمر ابن جعفر بن محمد بن سلام قال أنا أبو إسحاق إبراهيم بن
إسحاق الحربي.

قال، حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد بن السيب أن رسول الله ﷺ قال،
" ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا، وما هو؟ قال،
إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة " .

وبإستاد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد
الله ابن الوليد عن عمران بن رباح قال، سمعت أبا مسلم يقول، سمعت أبا
هريرة يقول الخبر، وفي الخبر تحذير عن البغضة، وهو أن يجفو المختلى مقتاً
لهم وسوء ظن بهم، وهذا خطأ.

وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما في نفسه من الآفات وحذراً
على نفسه من نفسه، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره.

فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد. والإشارة
بالحالقة يعنى أن البغضة حالقة للدين، لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين
بعين القت.

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح بإسناده إلى إبراهيم الحربي، قال حدثنا
يعقوب بن إبراهيم، قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان.

قال: إن لله تعالى ملكاً تصفه من نار ونصفه من ثلج، وإن من دعائه
اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار
تذيب الثلج ألف بين قلوب بآدك الصالحين .

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ في وقته العزيز بقلب قوسين، في وقت لا يسعه فيه شيء، للطف حال الصالحين وجدهم في ذلك المقام العزيز.

وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين، وصحبتهم لازمة، وعزيمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة حازمة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن رجلاً صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغيض فيه ما نفعه ذلك.

أخبرنا رضي الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعاً، قال أنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري.

قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول، سمعت عبد الله بن العلم يقول: سمعت أبا بكر التلمساني يقول، اصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحتهم إلى صحبة الله.

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة، قال أنا عمر بن أحمد الصفار النيسابوري إجازة، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف.

قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال، سمعت أبا الأصفهاني يقول، سمعت أبا جعفر الحلي يقول، سمعت علي بن سهل يقول، الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله.

وقد نبه الفائل نظماً على حقيقة جامعة لعاني الصحبة والخلوة وقائدتها وما يحذر فيها بقوله:

وحدة الإنسان خير	من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير	من يعود للشر وحده

الباب الرابع والخمسون

في أدب حقوق الصحبة والأخوة في الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ ^(١)

وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ^(٢)

وقال في وصف اصحاب رسول الله ﷺ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٣)

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على أدب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأنبهه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالسائلة والدعاء والتضرع، ويسأل البركة في الصحبة، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة، وإما باباً من أبواب النار.

فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيراً فهو باب من أبواب الجنة .

قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، لَا يُمْنِقِينَ﴾ ^(٤)

وقيل: إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له لدخل الجنة، فيسأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله، فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك.

فيقول إني كنت أعمل لى وله، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته.

(١) سورة المائدة : آية رقم : ٢ .

(٢) سورة العصر : آية رقم : ٣ .

(٣) سورة الفتح : الآية : ١٩ .

(٤) سورة الرخرف : آية رقم : ٦٧ .

وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شراً فهو باب من ابواب النار .

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ إِنِّي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَنْوِيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَأَنَا خَلِيلًا ﴿١﴾﴾

وإن كانت الآية وردت في قصة مشهورة ولكن الله تعالى فيه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقاً من غير فيه في ذلك.

وتنبهت في أول الأمر شأن لرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار.

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس .

فانفساد بالصحة متوقع، والصالح متوقع، وما هذا سبيله فكيف لا يحذر في أوله، ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجوء إلى الله تعالى، وصدق الاختيار، وسؤال البركة والخيرة في ذلك، وتقديم صلاة الاستخارة .

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى المية وإلى حسن الخاتمة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخير الطويل " سبعة يظلهم الله تعالى " فمنهم اثنان تحابا في الله، فعاشا على ذلك، وماتا عليه، إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة، حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة. ومتى افسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول .

فيل: ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين في الله متحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما

وكان الفضيل بقوله: إنا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة.

والأخوة هي الله تعالى مواجهة، قال الله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(١)

ومتى اضر أحداهما للآخر سوءاً أو كره منه شيئاً ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه، فما واجهه بل استتبره .

قال الجنيد رحمه الله: ما تواخى اثنان في الله واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعله في أحدهما.

فالوإخاء في الله أضفى من الماء الزلال، وما كان لله قاله مطالب بالصفاء فيه، وكل ما صفا نام، والأصل في دوام صفائه عدم الخالفة .

قال رسول الله ﷺ "لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعد موعدا فتخلفه"

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلافة.

فقيل له، وكيف ذلك؟

قال : لأنى كنت معهم على نفسى.

أخبرنا شيخنا أبو الحبيب السهروردي إجازة، قال أنا عمر بن أحمد الصفار، قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف، قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي

قال سمعت عبد الله النراقي قال سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل: على أي شرط اصحب الخلق؟ فقال: إن لم تيرهم فلا تؤنهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم .

وبهذا الاسناد قال أبو عبد الله: لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصدقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصحبة، أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير.

قيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكرهه، فكان يقال له (استخباراً عن حالها، فيقول: لا ينهني للرجل أن يقول في أهله إلا خيراً، فقارقتها وطلقها).

فاستخبر عن ذلك فقال: امرأة بعثت عني وليس مني في شيء فكيف أذكرها؟

وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه أولاً؟

اختلف القول في ذلك .

كان أبو زر يقول: إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله. قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) ولم يقل إني بريء منكم.

وقيل: كان شلب يلازم مجالس أبي الدرداء، وكان أبو الدرداء يميزه على غيره، فابتلى الشلب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه.

فقبل له: لو أبعدته وهجرته؟ فقال: سبحانه الله، لا يترك الصاحب بشئ كان منه.

قيل: الصداقة لحمه كلحمه النسب.

وقيل لحكيم مرة: أيما أحب إليك؟ أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخى إذا كان صديقى.

وهذا الخلاف فى الفارقة ظاهراً وباطناً.

وأما الملازمة باطناً إذا وقعت للباينة ظاهراً فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقاً من غير تفصيل.

فمن الناس من كان تغيره رجوعاً عن الله وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه.

ومن الناس من كان تغيره عنرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده، فلا ينبغي أن يبغض، ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة، ويلاحظ بعين الود منتظراً له الفرج والعود إلى أوطان الصلح.

فقد ورد أن النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال: مه، وزجرهم بقوله "ولا تكونوا عوباً للشيطان على أخيكم".

وقال إبراهيم المصغى: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بلنبسه، فإنه يركبه اليوم ويتركه عداً.

وفى الخير: اتقوا زلة العلم ولا تقطعوه وانتظروا فينته.

وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ كان أخاه فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال ما فعل أخى؟

فقال له: ذاك أخوه الشيطان، قال له: مه.

قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر، فقال إذا أردت الخروج فاذني، قال فكتب إليه: ﴿حَمِّمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذُّنُوبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾^(١)

ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى، فقال صدق الله تعالى ولبص عمر، فتاب ورجع.

وروى ابن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يميناً وشمالاً فسأله، فقال يا رسول الله أخيت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه.

فقال يا عبد الله إذا أخيت أحداً فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عذته، وإن كان مشغولاً أعنته.

وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة تكون له فعملت ما مكافأته في الدنيا.

وكان يقول سعيد بن العاص: الجليس على ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له.

وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان.

فإن ما كان معلولاً يزول بزوال علته، ومن لا يستند في خلته إلى علة يحكم بدوام خلته.

ومن شرط الحب هي الله إظهار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿مُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ

(١) سورة غافر: آية رقم ١٠، ٢٠، ٢١.

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(١) فَقَوْلُهُ
تعالى: ﴿وَلَا تَحْجِدُوا فِي سُذُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ^(٢).

أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو
الحبة، أحدهما اقتزاع الحسد على شئ من أمر الدين والدنيا، والثانى، الإيثار
بالقصور.

وهى الخير عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام " للراء على دين خليله
ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه".

وكان يقول أبو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى، قيل:
وكيف ذاك؟ قال: كلهم يرى لى الفضل عليه، ومن فضلنى على نفسه فهو
خير منى.

ولبعضهم نظما :

تدليل لمن إن تدللت لسه	يرى ذاك الفضل لا للبالسه
وجانب صداقة من لم يزل	على الأصدقاء يرى الفصل له

(١) سورة الحشر، آية رقم ٩٠.

(٢) سورة الحشر، آية رقم ٩٠.

الباب الخامس والخمسون في آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصحبة، فقال: حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس في طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والعاقبة في أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم التعاقل عن زلل الإخوان، والنصح فيما يجب فيه النصيحة، ومكتهم عيب صاحبه وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان، قال لي ميمون بن مهران، قل لي في وجهي ما أكرهه، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه، فإن الصادق يحب من يصدقه، والكاتب لا يحب الناصح. قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ ^(١) والنصيحة ما كانت في السر .

ومن أدب الصوفية القيام بخدمة الإخوان، واحتمال الأذى منهم، فهذا بظهر جوهر الفقير .

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس ابن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والروقة.

فقال له العباس، قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده، فقال إذا لا يرده إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٧٩ .

ومن ادبهم: أن لا يرون أنفسهم ملكاً يختصون به.

قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول نعلی.

أخبرنا بذلك رضي الدين عن أبي الظر عن والده أبي القاسم القشيري

قال سمعت أبا حاتم الصوفي قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك

وقال أحمد بن التسلا نسي: دخلت على قوم من الفقراء يوماً بالبصرة

فأكرموني وبجلوني، فقلت يوماً لبعضهم: أين إزاري؟ فسقطت من أعينهم.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء:

أن تكون الخدمة والأذان له.

وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا مكبله.

فقال رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على هذا.

فقال: أعينني صدقت.

وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين، ويعمل في الحصاد، وينفق

على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه

استعمله من غير مؤامرة. قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ﴾^(١) أي مشاع

هم فيه سواء.

ومن أدبهم أنهم إذا استنقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم، ويتسببون في

إزالة ذلك من مواطنهم، لأن اتطواه الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة

في الصحبة.

قال أبو بكر الكتاني: صحبني رجل وكان على قلبي ثقبلاً، فوهبت له شيئاً بنيت أن يرول ثقله من قلبي، فلم يزل، فخلوت به يوماً وقلت له: ضع رجلك على خدي، فابى، فقلت له: لا بد من ذلك، ففعل ذلك، فزال ما كنت أجده في باطني .

قال الرقي: قصصت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية .

ومن أديهم: تقدم من يعرفون فضله، والتوسع له في المجلس والإينار بالموضع .^١

روى أن رسول الله ﷺ كان جالساً في صفة ضيقة، فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فاقام رسول الله ﷺ من لم يكن من أهل بدر، فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فانزل الله تعالى: ﴿وَدَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾^(١) الآية.

وحكى أن علي بن بندر الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خميف زائراً، فتماشياً، فقال له أبو عبد الله: تقدم، فقال: بأى عذر؟ فقال: بأنك لغيت الجنيد وما لغيته .

ومن أديهم: ترك صحبة من هممة شئ من فضول الدنيا. قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٢) .

ومن أديهم: بذل الإنصاف للإخوان، وترك مطالبة الإنصاف.

قال أبو عثمان عثمان الحيري: حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك، ولا تطمع في ماله، وتنصفه من نفسك، ولا تطلب منه الإنصاف منه،

(١) سورة المجادلة: آية رقم ١١

(٢) سورة المجيم: آية رقم ٣٩

وتكون تبعاً له، ولا تطمع أن يكون تبعاً لك، وتسكنر ما يصل إليك منه،
وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم في الصحبة: لين الجانب، وترك ظهور النفس بالصولة .

قال أبو علي الروذباري: الصولة على من فوقك فحة، وعلى من مثلك
سوء أدب، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم: أن يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا، وليت
كان كذا، وعسى أن يكون كذا، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه
اعتراضاً .

ومن أدبهم في الصحبة : حذر للفارقة، والحرص على اللازمة .

قيل: صاحب رجل رجلاً ثم أراد الفارقة، فاستأذن صاحبه، فقال:
بشرط أن لا تصحب أحداً إلا إذا كان فوقنا، وإن كان فوقنا أيضاً فلا
تصعبه، لأنك صحبتنا أولاً، فقال الرجل، زال عن قلبى نية الفارقة.

ومن أدبهم ، التعطف على الأصاغر .

قيل: كان إبراهيم بن أحمد يعمل في الحصاد، ويظمم الأصحاب،
وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربما كذا، يتأخر في بعض الأيام في
العمل، فقالوا ليلة، تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع،
فأفطروا وناموا.

خرج إبراهيم فوجدهم نياماً، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم
طعام، فعمد إلى شئ من الخبث فحطبته، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعاً
محاسنه على التراب، فقالوا له في ذلك؟ فقال لعلكم لم تجلوا فطوراً فنهتم،
فقالوا: انظروا بآى شئ عاملنا، وبآى شئ يعاملنا.

ومن أدبهم: أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين؟ ولم؟ وبآى سبب؟

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للمصاحب قم بنا فقال إلى أين، فلا تصحبه.

وقال آخر، من قال لأخيه اعطني من مالك فقال لكم تريد، ما قام بحق الإخاء .

وقد قال الشاعر،

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا للإخوان .

قيل، لما ورد أبو حفص العراقي تكلف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة فانكر ذلك أبو حفص وقال: صير أصحابي مثل الخانيث يقدم لهم الألوان.

والفتوة عندنا ترك التكلف، وإحضار ما حصر، فإن التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف، وبترك التكلف يستوى مقامه ودهابه.

ومن أدبهم في الصحبة، اللزامة، وترك اللداهنة، ونشبه اللزامة باللداهنة، والفرق بينهما أن اللزامة ما أريد به صلاح أخيك، لداريته لرجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره، واللداهنة ما قصدت به شيئاً من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم في الصحبة: رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط

يقول عن الشافعي رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبه لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء سوء، فكان بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم: ستر عورات الإخوان .

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشف الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه.

فقال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟

قال: أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها وبشيءها بأعظم منها.

ومن أدبهم: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع الكاره عنهم .

حكى أن أخوين مبتلى أحدهما بهوى، فأظهر عليه أخاه، فقال: إني مبتليت بهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتي له فافعل.

فقال: ما كنت لأحل عقد إخوانك لأجل خطيئتك، وعقد بينه وبين الله عقداً أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه، وطوى أربعين يوماً كلما يسأله عن هواه يقول: ما زال، فبعد الأربعين أحبره أن الهوى قد زال، فأكل وشرب .

ومن أدبهم: أن لا يحوجوا صاحبهم إلى اللزامة، ولا يلجئوه إلى الاعتذار، ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: شر الأصناف من أحوالك إلى مداراة، أو العجاء إلى اعتذار، وتكلف له .

وقال جعفر الصادق، أنقل إخواني على من يتكلف لي وأحفظ منه، وأخفهم على قلمي من أكون معه كما أكون وحدي .

فأدب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة، والحكايات في ذلك بطول نفلها.

وقد رأيت في كتاب الشيخ أبي طالب الكي رحمه الله من الحكايات في هذا المعنى شيئاً كثيراً، فقد أودع كتابه كل شيء حسن من ذلك .

وحاصل الجميع: ان العبد ينبغي له ان يكون مولاه، ويريد كل ما يريد مولاه لا لنفسه، وإذا صاحب شخصاً تكون صحبتته إياه لله تعالى.

وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له في كل شئ يزيد عند الله زلفى، وكل من قام بحقوق الله تعالى برزقه الله تعالى علماً بمعرفة النفس وعيوبها، ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الأدب، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة، ويفقهه في ذلك كله.

ولا يفوته شئ مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

لكل نقصير وجب، من خبث النفس وعدم تزكيتها، وبقاء صفاتها عليه، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة، وبالتفريط أخرى، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق، والحكايات والواعظ والأدب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير، ويكون ككبر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمتد فيه ولا ينتفع به.

وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياة، وتعمقت وعلمت، وأنت الحقوق، وقامت بواجب الأدب، بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي، قال أنا الشريف نور الهدى، أبو طالب الزيتي، قال أنا كريمة الروزية، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهني.

قال أخبرنا أبو عبد الله الفريرى، قال أنا أبو عبد الله البخارى، قال حدثنا عمر بن حفص، قال حدثنا أبي، قال حدثنا الأعمش قال حدثنا زيد بن وهب.

قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق للصديق قال "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكاً بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله، ورزقه، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار".

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾﴾.

أي حريز، لا استقرارها فيه إلى بلوغ أمها. ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٣﴾﴾ قبل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه.

(١) سورة المؤمنون، آية رقم ١٢، ١٣.

(٢) سورة المؤمنون، آية رقم ١٤.

وأعلم أن الكلام في الروح صعب للراى، والإمساك عن ذلك سبيل نوى
الأحلام. وقد عظم الله تعالى شأن الروح، وسجل على الخلق بقلة العلم حيث
قال، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١).

وقد أخبرنا الله تعالى في كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال، ﴿ وَلَقَدْ
كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾^(٢).

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم ونريته.

فألت الملائكة بأرب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فأجعل لهم
الدنيا ولنا الآخرة.

فقال، وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدي مكن قلت له
كن فكان.

فمع هذه الكرامة، واختياره سبحانه وتعالى إياهم على الملائكة، لما أخبر
عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال، ﴿ وَتَعَلَّمُوا نَسَبَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ
مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾^(٣) الخ.

قال ابن عباس، قال اليهود للنبي عليه السلام، أخبرنا ما الروح،
وصكيف تعذب الروح التى فى الجسد، وإنما الروح من أمر الله، ولم يكن نزل
إليه فيه شئ، فلم يجيبهم، فأتاه جبرائيل بهذه الآية.

وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله
تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معتن العلم وينبوع الحكمة.

(١) سورة الإسراء: آية رقم ٨٥.

(٢) سورة الإسراء: آية رقم ٧٠.

(٣) سورة الإسراء: آية رقم ٢٥.

هكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه، لا جرم لما تقاضت
الأنفس الإنسانية للتطالعة إلى الفضول للتشوفة إلى العقول، التحركية
بوضعها بالسكون فيه، وللنسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه.

وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة
ماهية الروح، تاهت في التيه، وتنوعت لراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين
أرباب النقل والعقل في شئ كالاختلاف في ماهية الروح.

ولو لزمت النفوس حدها، معترفة بحجزها، كان ذلك أجدر
بها وأولى.

فأما أقاويل من ليس متمسكاً بالشرائع، فتنزّه الكتاب عن ذكرها،
لأنها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد، وطبعت على الفساد، ولم
يصبها نور الاهتداء، ببركة متابعة الأنبياء، فهم حكما قال الله تعالى:
﴿كَأَنْتَ أَغْمِيهِمْ فِي غَمَلٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَأَنُورًا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(١).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ
بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾^(٢) فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا، وحيث لم
يسمعوا لم يهتدوا، فأصروا على الجالات، وحجبوا بالعقول عن المأمول.

والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوماً ويضل به قوماً آخرين، فلم
تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه. وأما الستمسكون بالشرائع، الذين
تكلموا في الروح، فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر، وقوم منهم بلسان
الذوق والوجد لا باستعمال الفكر، حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أبصاً،
وكان الأولى الإمساك عن ذلك، والتأدب بأدب النبي عليه السلام

وقد قال الجنيد: الروح شئ استأثر الله بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه
بأكثر من موجود.

(١) سورة الكهف: آية رقم ١٠١.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥.

ولكن يجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم، ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات الفزلة، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله، إذ لا يسع القول في التفسير إلا نقل، وأما التأويل فتعتمد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما تحتل الآية من المعنى، من غير القطع بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فالقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبد الله النباحي: الروح جسم بلطف عن الحسن، ويكبر عن اللمس، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم، فكانه عبر عنه .

وقال ابن عطاء: خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني الأرواح ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يعني الأجساد .

وقال بعضهم: الروح لطيف قائم في كنف، كالبصر جوهر لطيف قائم في كنف .

وفي هذا القول نظر .

وقال بعضهم: الروح عبارة، والقائم بالأشياء هو الحق .

وهذا فيه نظر أيضاً، إلا أن يحمل على معنى الإحياء، فقد قال بعضهم: الإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخلق، وقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وأمره كلامه، وكلامه ليس بمخلوق .

أي صار الحي حياً بقوله كن حياً، وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الحسد .

فمن الأقوال ما يدل على أن قائلة يعتقد قدم الروح، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه .

ثم إن الناس مختلفون في الروح الذي سنل رسول الله ﷺ عنه، فقال قوم: هو جبرائيل.

ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة.

يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إن الروح خلق من خلق الله، صورهم على صورة بنى آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح :

وقال أبو صالح: الروح كهينة الإنسان وليسوا بناس.

وقال مجاهد: الروح على صورة بني آدم لهم أيدي وأرجل ورءوس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة .

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبلغ السموات والأرضيين السبع في لقمة تفعل.

صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة آدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه في صف واحد، وهو ممن يشمع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستر من نور لأحرق أهل السموات من نوره .

فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلاً وسماعاً، بلعهم عن رسول الله ﷺ ذلك.

وإذا كان الروح السنول عنه شيئاً من هذا النقول فهو غير الروح الذي في الجسد.

فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً .

وقال بعضهم: الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من كُنْ لأنه لو خرج من كُنْ كان عليه الدل .

فيل : فمن أى شئ خرج ؟

قال : من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياتها بكلامه ، فهي معتقة من ذل كُنْ .

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هي ؟

قال : نعم . ولولا ذلك ما أقبرت بالربوبية حيث قالت : « بلى » والروح هى التى قام بها البدن ، واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحجة ، ولو لم يكن الروح مكان العقل معطلاً لا حجة عليه ولا له .

وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها الطيف المخلوقات ، وأصفى الجواهر وأنورها ، وبها تراءى الغيبات ، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق . وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأحب ، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار ، وقابض ونازع .

وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء .

وقيل : الأرواح أقسام : أرواح تجول فى السمخ ، وتبصر أحوال الدنيا والملائكة ، وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال آدميين ، وأرواح تحت العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاعت على أقدرها من السعى إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن السيب عن سلمان قال: أرواح المؤمنين تنهب في برزخ من الأرض حيث شاعت بين السماء والأرض حتى يردّها إلى حصدّها.

وقيل . إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء اتقوا وتحلّثوا وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء.

حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعمنذر إلى الله ظاهراً عنه، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

وقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ "تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بهاضاً وشرافاً فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم".

وفي خبر آخر "إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان حسناً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا".

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطي: لأي علة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق؟ قال: لأنه خلق روحه أولاً، فوقع له صحبة التمكن والاستقرار.

الآثاره يقول "كنت نبياً وأدم بين الروح والجسد" أي لم يكن روحاً ولا جسداً .

وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة، وإبليس من نار العزة، ولهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١) ولم ينس أن النور خير من النار .

قال بعضهم: قرن الله تعالى العلم بالروح، فهي للطاقتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء، وهذا في علم الله، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك.

والاختار عند أكثر متكلمي الإسلام: أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان، واللوت بعد مهما، وأن الروح هي الحياة بعينها، صار البدن بوجودها حيا، وبالإعادة إليه هي القيامة بعير حيا .

وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه: جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة، لا شتباك الماء بالعود الأخضر، وهو اختيار أبي المعالي الجويني.

وكثير منهم مال إلى أنه عرض، إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم، لما ورد فيه من الخروج والهبوط والتردد في البرزخ، فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم.

لأن العرض لا يوصف بأوصاف، إذ الوصف معنى، والمعنى لا يقوم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما: قيل: أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال: أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان؟

قيل له: هاين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: هاين يذهب لحمها إذا مرصت؟

وقال بعض من ينتمى بالعلوم الرخوة للنموية وينسب إلى الإسلام: الروح تنفصل من البدن إلى جسم لطيف.

وقال بعضهم: إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط البطنية، فتكون حينئذ مطالعة للمعاني والمحسوسات، لأن تجردها من هيات البدن عند الفارقة غير ممكن.

وهي عند الموت شاعرة بالموت، وبعد الموت منخلية بنفسها مقهورة، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة، وتحس بالثواب والعقاب في القبر.

وقال بعضهم: أسلم المغالات أن يقال: الروح شئ مخلوق، أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن ما دام متصلاً به، وأنه أنشرف من الجسد، ينوق الموت بمفارقة الجسد، كما أن الجسد بمارفته ينوق الموت، فإن الكيفية والماهية يتماشى العقل فيهما كما يتماشى البصر في شعاع الشمس.

ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم: الوجودات محصورة: قديم وجسم وجوهر وعرض، فالروح أى هؤلاء؟

فأختار قوم منهم، أنه عرض.

وقوم منهم: أنه جسم لطيف كما ذكرنا.

وأختار قوم، أنه قديم، لأنه أمر، والأمر كلام، والكلام قديم.

فما أحسن الإمساك عن القول فيهما هذا سبيله .

وكلام الشيخ أبى طالب للكى فى كتابه: يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد، وهكذا النفوس، لأنه يدسكّر إن الروح تتحرك للخير، ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه تلك فيلهم الخير عند ذلك، وتتحرك للشر.

ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال النشايخ تشير إلى فروح أقول :

معندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به،
إذ مبلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك فأقول، والله أعلم :

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر.

والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق.

والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده.

والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث
من القلب، أعنى بالقلب ههنا للصفة اللحمية للعروقة الشكل، للودعة فى
الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر فى تجاريف العروق الضوئى.

وهذه الروح لسانر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذى
قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالباً، ويتصرف بعلم الطلب فيه باعتدال
مزاج الأخلاط.

ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى،
وبأين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلاً للنطق
والإنهام.

قال الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١) فتسويها بورود
الروح الإنسانى عليها واتقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات، فتكونت النفس
بتكوين الله تعالى من الروح العلوى.

وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الأدمى من الروح
العلوى فى عالم الأمر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق.

(١) سورة الشمس، آية رقم ٨٠، ٧٠ .

وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾^(١) فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفساً.

وتكون من سكون الروح إلى نفس القلب وعنى بهذا القلب اللطيفة التي محلها المضة اللحمية، فالضفة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطيفة من عالم الأمر.

وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق، ولولا الساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب.

فمن القلوب قلب مطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوي مبال إليه، وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال "القلوب أربعة،

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر.

وقلب مربوط على غلافة فذلك قلب النافق.

وقلب مصفح فيه إيمان وبفاق.

فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كممثل القرحة يمدّها القيح والصليد. فأى الساتين غلبت عليه حكم له بها".

والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعاد والشفاعة. والعقل جوهر الروح العلوى ولأنه ونحل عليه، وتبهره للقلب المؤيد والنفس الزكية الملائمة بتبهر الوالد للولد البار، والزوج للزوجة الصالحة.

وتبهره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تبهر الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة، فمنكوس من وجه ومنجذب إلى تبهرهما من وجه إذ لا بد له منهما.

وقول القائلين واختلافهم في محل العقل، فمن قائل إن محله الدماغ. ومن قائل إن محله القلب، كلام القاصرين عن ترك حقيقة ذلك. واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى. وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق. فإذا رأى في تبهر العاقل قبل مسكنه الدماغ.

وإذا رأى في تبهر البار قبل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بارتفاع إلى مولاه شوقا وحنونا وتنزها عن الأكوان.

ومن الأكوان القلب والنفس، فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها. وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة في العالم السفلى، وانطوى هواها، وانحسمت مادته، وزهبت في الدنيا، وتجاقت عن دار الفرور، وأتابت إلى دار الخلود.

وقد تحل النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى، لتكونها من الروح الحيوانى الجبس، ومستندها في ركونها إلى الطبائع التي هي أركان

العالم السفلى. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَئِنَّكَ أَخْلَدْتَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾^(١)

فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض، انجذب إليها القلب الكوس،
انجذب الولد للوالد إلى الوالدة للموجة للعاقصة، دون الولد الكامل المستقيم،
وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب.

لما جبل عليه من اجذب الولد إلى والده، فعند ذلك يتعلف عن حقيقة
القيام بحق مولاه، وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة
﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢).

وقد ورد في أخبار دود عليه السلام: أنه سأل ابنه سيمان، أين موضع
العقل منك؟ قال: القلب، لأنه قلب الروح، والروح قالب الحياة.

وقال أبو سعيد القرشي: الروح روحان، روح الحياة وروح المات، فإذا
اجتمع عقل الجسم. وروح المات هي التي إذا خرجت من الجسد يصير الحي
ميتاً. وروح الحياة مابه مجارى الأنعام وقوة الأكل والشرب وغيرهما.

وقال بعضهم: الروح نسيم طيب تكون به الحياة، والنفس ربح حارة
تكون منها الحركة الذمومة والشهوة، ويقال: فلان حار الرأس.

وهي الفصل الذي ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس، وإشارة المشايخ
بماهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال الذمومة والأخلاق
الذمومة، وهي التي تعالج بحسن رياضة إزالتها، وتبديلها، والأفعال الرديئة
تزال والأخلاق الرديئة تبدل.

(١) سورة الأعراف، آية رقم ١٧٦.

(٢) سورة يس، آية رقم ٢٨.

أخبرنا الشيخ العالم رضى الله عن أحمد بن إسماعيل القزوينى قال أنا
إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلي، قال أنا القاضي محمد بن
سعيد الفرخزادى قال أنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم.

قال أنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيناني، قال حدثنا محمد بن
الحسن اليقطيني، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال حدثنا
صفوان بن صائح، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن نهيعة عن خالد بن
ريد عن سعيد بن أبى هلال أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١) وقف ثم قال اللهم ات نفسي تقواها، أنت وليها
ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها.

وقيل: النفس لطيفة مودعة في القلب، منها الأخلاق والصفات
الذمومة، كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات
المحمودة، كما أن العين محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم،
والفم محل الذوق.

وهكذا النفس محل الأوصاف للذمومة، والروح محل الأوصاف
المحمودة، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين.

أحدهما: الطيبش.

والثاني: الشره، وطيشها من جهلها، وشرها من حرصها، وشبهت
النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال
متحركة بجلتها ووضعها، وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه
على ضوء الصباح، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء
الذي فيه هلاكه.

فمن الطيش توجد العجلة وكلة الصير، والصير جوهر العقل، والطيش
صفة النفس وهواها وروحها لا يخليه إلا الصير.

إذ العقل يقمع الهوى، ومن شره يظهر الطمع والحرص، وهما اللذان
ظهرا في آدم حيث طمع في الخلود، فحرص على أكل الشجرة.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكوينها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها
بحسبه وصف.

وقيل، وصف الضعف في آدمي من التراب، ووصف البخل فيه من
الطين، ووصف الشهوة فيه من الحما للسنون، ووصف الجهل فيه من
الصلصال.

وقيل، قوله كالفخار، فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول
النار في الفخار، فمن ذلك الخناع والحيل والحسد.

فمن عرف أصول النفس وجبالاتها، عرف أن لا قدرة له عليها
بالاستعانة ببارئها وهاطرها، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر
دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعمل.

وهو رعاية طرفي الإفرط والتفريط، ثم بذلك تتقوى إنسانيته
ومعناه، ويدرك صفات الشيطنة فيه، والأخلاق الذمومة وكمال إنسانيته،
ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تنكشف له الأخلاق التي تنازع بها
الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك.

هيري أن صرف العبودية في ترك المنازعة للربوبية، والله تعالى ذكر
النفس في كلامه القليم بثلاثة أوصاف:

بالطمانينة قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(١)

وسماها لوامه قال، ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ

(١)

وسماها أماره فقال : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٢)

وهي نفس واحدة، ولها صفات متغيرة، فإذا امتلأ القلب سكينه خلع الطمأنينة، لأن السكينه مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح، لما منح من حظ اليقين، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب، وهي ذلك طمأنينتها.

وإذا انزعجت من مقام جبالاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقام الطمأنينة فهي لوامه، لأنها تعود باللائمة على نفسها، ولنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة، ثم انجذابها إلى محلها التي سكنت فيه أماره بالسوء، وإذا أقامت في محلها لا يغشاها نور العلم فهي على ظلمتها أماره بالسوء.

هالنفس والروح يتطاردان، فتارة يملك القلب دواعي الروح، وتارة يملكه دواعي النفس .

وما السر فقد شار القوم إليه، ووجدت في كلام القوم:

ان منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح.

ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها والطمه، وقلوا السر محل الشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة.

والسر لذي وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله، وإنما المذكور في كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها، والقلب والفؤاد والعقل.

(١) سورة القيامة: آية رقم: ٢٠٩ .

(٢) سورة يوسف: آية رقم: ٥٢ .

وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالعنى المشار إليه ورأينا
الاحتلاف في القول فيه.

وأشار قوم إلى أنه دون الروح، وقوم إلى أنه لطف من الروح فنقول
والله أعلم،

الذي سموه سرا ليس هو بشئ مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح
والنفس، وإنما لما صفت النفس وتركت لطلاق الروح من وفاق ظلمة
النفس، فآخذ في الخروج إلى لوطان القرب، والترح القلب عند ذلك عن
مستقره متطعاً إلى الروح.

فما كتسب وصفاً زائداً على وصفه، فانعجم على الواجبين ذلك
الوصف حيث رأوه أصفى من القلب المسموه سرا .

ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطعنه إلى الروح، اكتسب
الروح وصفاً زائداً في عروجه، وانعجم على الواجبين المسموه سرا. والذي
زعموا أنه اللطف من الروح، روح منتصفه بوصف أخص مما عهدوه، والذي
سموه قبل الروح سرا هو قلب انتصف بوصف رائد غير ما عهدوه.

وهي مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب،
وتتخلع من وصفها، فتصير نفساً مطمئنة تريد كثيراً من مرادات القلب من
قبل، إذا صار القلب يريد ما يريد مولاه، متبرئاً عن الحول والقوة والإرادة
والاختيار.

وعندها ذاق طعم صرف العبودية، حيث صار حراً عن إرادته
واختياراته. وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح
بمنايا القلب، والعقل بمنايا اللسان .

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال " أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقعد فأقعد، ثم قال له اسطبق فسطق، ثم قال له اصمت فصمت.

فقال وعزني وجلالي وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك ولا أكرم على منك بك أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك أخذ، وبك أعطى، وإياك أعاتب، ولك الشواب، وعليك العقاب، وما أكرمك بشئ أفضل من الصبر".

وقال عليه السلام، " لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقده عقله".

وسألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ قالت: قلت يا رسول الله بأي شيء يفاضل الناس؟ قال : بالعقل في الدنيا والآخرة.

قالت : قلت : اليس يجزى الناس بأعمالهم؟ قال: يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل، فهقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون".

وقال عليه السلام " إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنها عقلاً.

فيل. وكيف يكون أحسنها عقلاً؟ قال: لورعها عن محارم الله، وأحرصها على أسباب الخير، وإن كان دونه في العمل والتطوع".

وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى قسم العقل بين عباده اشتاتاً، فإن الرجلين يستوي علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد".

وروى عن وهب بن منبه أنه قال: لئن أجد في سبعين كتاباً إن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعهما من العقل في جنب عقل رسول الله ﷺ كهينة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا .

واختلف الناس في ماهية العقل، والكلام في ذلك يكثر، ولا نؤخر نقل الأقاويل، وليس ذلك من غرضنا .

فقال قوم: العقل من العلوم، فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل، وليس العقل جميع العلوم، فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل .

وقالوا: ليس من العلوم النظرية، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل، فهو إذاً من العلوم الضرورية وليس هو جميعها، فإن صاحب الحواس المختلطة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقل بعضهم: العقل ليس من أقسام العلوم، لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الأهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلاً، ونحن نرى العاقل في كثير من أوقاته ذاهلاً .

وقالوا: هذا العقل صفة ينتهي بها درك العلوم .

ونقل عن الحارث بن أسد الحاسبى وهو من أجل الشيخ أنه قال: العقل غريزة ينتهي بها درك العلوم .

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه في أول ذكر العقل: أنه لسان الروح، لأن الروح من أمر الله، وهى التحملة للأمانة التى أئبت السموات والأرضون أن يحملنها .

ومنها يفيض نور العقل، وفي نور العقل تتشكل العلوم. فالعقل للعلوم
بمثابة اللوح المكتوب، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة،
ومنتصب مستقيم تارة.

فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقة في أجزاء الكون، وعدم
حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء.

ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التي هي للروح
بمثابة القلب، واهتدى إلى الكون، ثم عرف الكون بالكون مستوفي الأقسام
للعرف بالكون والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية.

فكما أحب الله إقباله في أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله في
أمر دله على الإدبار عنه، فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه،
ومكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة فكانت دلالاته على الرشيد ونهيه
عن الغي .

قال بعضهم: العقل على ضربين، ضرب يبصر به أمر دنياه، وضرب
يبصر به أمر آخرته .

ونذكر: أن العقل الأول من نور الروح، والعقل الثاني من نور الهداية.

فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم، والعقل الثاني موجود في
الوحيين، مفقود من الشرعيين .

وقيل: إنما سمي العقل عقلا. لأن الجهل ظلمة، فإذا غاب النور بصره
في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا للجهل .

وقيل: عقل الإيمان مسكنه في القلب، ومتعمله في الصدر بين
عيبي المؤاد.

والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين.

ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل، ووضع الأشياء في مواضعها. وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع.

لأن انتصابه واعتداله هذه إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية، ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته، واستقامة عقله بتأيد البصيرة .

فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل، والتى يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفذ البحر دون تفادها.

والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه، ويستأخر ببعضه دون اللسان .

ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملكة والملك ظاهر الكائنات.

ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت، والملكوت باطن الكائنات، اختص بمكاشفة لرباب البصائر والعقول، دون الهامدين على مجرد العقول دون البصائر .

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان، عقل للهداية مسكنه فى القلب وذلك للمؤمنين الوقيين ومتعمله فى الصرير بين عيني الفؤاد.

والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ ومتعمله فى الصرير بين عيني الفؤاد، فبالأول يسير أمر الآخرة، وبالثانى يسير أمر الدنيا.

والذى ذكرناه: أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصرة دهر الأميين، وإذا
تفرد دهر أمرا واحدا وهو واضح وإبين .

وقد ذكرنا في أول الباب من تكبيره للتفصيص الطمينة والأمانة ما
يتنبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصرة تارة، ومنفردا
بوصفه تارة.

والله الملهم للصواب.

الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهرورودي، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي،
قال أنا أبو نصر الترياقى، قال أنا أبو محمد الجراحى، قال أنا أبو العباس
المحبوبى، قال أنا أبو عيسى الترمذى، قال أنا أبو هناد.

قال أنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني، عن عبد
الله بن معبود رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **مَنْ لِلشَّيْطَانِ لُحَّةٌ بِأَهْلِ آدَمَ،
وَلِلْمَلِكِ لُحَّةٌ، فَأَمَّا لُحَّةُ الشَّيْطَانِ فَابْعَادُ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لُحَّةُ الْمَلِكِ
فَإِبْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ،
وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ** ثم قرأ: ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ
الْفَقْرَ وَبِأَمْرِكُمْ بِالْفَخْشَاءِ﴾^(١)

وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مرید يتشوف
إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء، لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه،
وصلاحه وفساده، ويكون ذلك عبدا مرادا بالخطوة بصفو اليقين ومنح
الوقنين.

وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم، ومن
أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف.

لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله
الكريم، ومن هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة
اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر.

ومن الحواظر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد حكما قال بعضهم: لي قلب إن عصيته عصيت الله، وهذا حال عبد استقام قلبه، واستقامة القلب لطمانينة النفس، وفي طمانينة النفس يأمن الشيطان، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب.

وإذا تكسر طمع الشيطان وقرب منه، لأن صفاء القلب محموف بالتذكر والرعاية، وللتذكر نور يقيه الشيطان كالتقاء أحدا النار.

وقد ورد في الخبر "إن الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تولى وخنس، وإذا غفل التقم قلبه فعدته ومناه".

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّكُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

فالتقوى وجود خالص الذكر، وبها ينفخ بابها، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمي الجوارح من الكاره، ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه.

فتصير أقواله وأفعاله ضرورية، ثم تنتقل إلى باطنه، ويظهر الباطن ويقيده عن الكاره، ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس.

قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصي حديث النفس، ويرى الإصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه، ويتقد القلب عند هذا الانتقاء بالذكر انتقاد الكواكب في كبد السماء، ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر.

(١) سورة الرعد: آية رقم ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: آية رقم ٢٠١.

هنا صار كذلك بعد الشيطان، ومثل هذا العبد ينسدر في حقه
 الخواطر الشيطانية، ولما ويكون له خواطر النفس، ويحتاج إلى أن يتقيها
 ويميزها بالعلم، لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها، كمطالبات النفس
 بحاجاتها، وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحطوط، ويتعين التمييز عند ذلك
 واتهام النفس بمطالبات الحطوط. قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
 جَاءِ كُفْرٍ فَاسِيٍّ يُدْخِلُ فَتَيِّنُوا﴾^(١) أي فتنبتوا.

وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة، حيث بعث عنه رسول الله ﷺ إلى بني
 المصطلق، فكذب عليهم ونبهم إلى الكفر والعصيان، حتى هم رسول الله ﷺ
 بقضائهم، ثم بعث خالدا إليهم، فسمع لذن الغرب والعشاء، ورأى ما يدل على
 كذب الوليد بن عقبة. فانزل الله الآية في ذلك. فظاهر الآية وسبب نزولها
 ظاهر، وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التنبت في الأمور.

قال سهل، في هذا الآية: العاسق الكذاب والكذب صفة النفس، لأنها
 تملئ أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها، فتعين التنبت عند خاطرها
 والقائها.

فجعل العبد خاطر النفس نيا يوجب التنبت، ولا يسنفزه الطبع، ولا
 يتمجله الهوى، فقد قال بعضهم: لئن الأدب أن تقف عند الجهل، وآخر الأدب
 أن تقف عند الشبهة ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بمحرك النفس
 وخالفها وبارئها وقاطرها، وإظهار الفقر والفاقة إليه، والاعتراف بالجهل،
 وطلب المعرفة والمعونة منه.

فإنه إذا أتى بهذا الأدب يخاف ويحان، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ
 أو طلب حق، فإن كان للحق إمضاء، وإن كان للحظ نفاذ.

وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم، لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم. ثم من الناس من لا يسهه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ، وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله، فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب.

ومن الناس من يدخل في تناول الحظ، ويمضى خاطره بعزيب علم لديه من الله، وهو علم السعة لعباد مانون له في السعة، عالم بالإذن، فيمضى خاطر الحظ.

والمراد بذلك على بصيرة من أمره، يحسن به ذلك ويليق به، عالم بزيادته ونقصانه، عالم بحاله، محكم لعلم الحال وعلم القيم، لا يقاس على حاله، ولا يدخل فيه بالتقليد، لأنه أمر خاص لعباد خاص.

وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من ملات الشيطان، تكثر لديه خواطر الحق وخواطر اللئيم وتصير الخواطر الأربعة هي حقه دلائل، ويسقط خطر الشيطان إلا نادرا لضيق مكانه من النفس.

لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس، واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد إلى الأرض، ومن ضائق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه، وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه.

ثم من المرادين للتعلمين بمقام القربين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر، يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات.

وكما تترقى تتضاعف النفس الطمئنة، وتبعد عنه خواطرها، حتى يجاوز السموات بمروج باطنه.

كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظواهره وقلبه، فإذا استكمل الخروج
تنقطع عنه خواطر النفس، لتستره بأموار القرب، وبعد النفس عنه، وعند
ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا.

لأن الخاطر رسول، والرسالة إلى من بعد، وهذا قريب، وهذا الذي
وصفناه نازل ينزل به ولا ينوم، بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات
النفس وخواطره، فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك.

وذلك أن الخواطر تستدعي وجوده، وما نشرنا إليه حال الفناء ولا
خاطر فيه، وخاطر الحق انتفى لكان القرب، وخاطر النفس بعد عنه لبعد
النفس، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل في ليلة المعراج عن رسول
الله ﷺ حيث قال، لو دنوت أنملة لأحترقت.

قال محمد بن علي الترمذي: الحدث والكلم، إلا تحققا في درجتهم لم
يخافا من حديث النفس.

فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان، كذلك محل المكالة
والحادثة محفوظة من إلقاء لنفس وفتنتها، ومعروس بالحق والسكينة، لأن
السكينة حجاب الكلم والحدث مع نفسه.

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول: الخواطر
أربعة: خاطر من النفس، وخطر من الحق، وخطر من الشيطان، وخطر
من الملك، فأما الذي من النفس فيحس به من أرض القلب، والذي من الحق
من فوق القلب، والذي من الملك عن يمين القلب، والذي من الشيطان عن يسر
القلب.

والذي ذكرناه إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد، وتصمى
وجوده وستقام ظاهره وباطنه، فيكون قلبه كالرأفة الجلوة لا يأتیه

الشيطان من ناحية إلا ويبصره، فإذا اسود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان.

روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ "إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه" قال الله تعالى، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

سمعت بعض العارفين يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال، الحديث في باطن الإنسان، والخيال الذي تراه في باطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو من القلب وليس هو من النفس.

وهذا بخلاف ما قرر، فسألته عن ذلك، فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومعادنات، وتآلف وتوحد، وكلما انطلقت النفس في شيء يهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكرر.

فإذا عاد العبد من مواطن النفس، وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى، أقبل القلب بالعاتبة للنفس، وذكر النفس شيئاً شيناً من فعلها وقولها، كاللائم للنفس والعاتب لها على ذلك، فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتحه فمعرفة من هم شأن العبد، لأن لأفعال من الخواطر تنشأ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم للفرض طلبه بقول رسول الله ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم" هو علم الخواطر، قال، لأنها أول الفعل، وبفسادها فساد فعل، وهذا لعمرى لا يتوجه، لأن رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر، فمنها ما هو بذر السعادة، ومنها ما هو بذر الشقاوة.

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها.

إما ضعف اليقين، أو قلة العلم بمعرفة صفات لنفس وأحلاقها، ومتابعة الهوى بخرم قوعد التقوى، أو محبة الدنيا جاهها ومالها، وطلب الرفعة ومنزلة عند الناس، فمن عصم عن هذه لأربعة يفرق بين لمة أئمة أولئك ولة الشيطان، ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يطلبها. وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض. وأقوم النفس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس، ومعرفة صعبة النال، لا تكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو علي الدقاق: من كان قوته معلوم لا يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد، وذلك أن من العلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعباد بأذن يسبق إليه في لأخذ منه والتقوت به. ومثل هذا للعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر، إنما ذلك يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإينار، لأنه يحجب لوضع اختياره، والذي أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه العلوم .

وفرّقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان، وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب بوسوس باخري، إذ لا يرض له في تخصيص بل مراده الإغواء كيفما أمكنه .

وتكلم الشيوخ في الخطارين إذا كانا من الحق أيهما يتبع .

قال الجنيد: الحاطر الأول لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل، وهذا شرط العلم .

وقال بن عطاء: الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول.

وقل أبو عبد الله بن خفيف: هما سوء، لأنهما من الحق، فلا مزية لأحدهما على الآخر.

قالوا: الواردات أعم من الحواطر، لأن الحواطر تختص بنوع خطاب و مطالبة، والواردات تكون تارة خوطر، وتارة تكون ولرد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط.

وقيل: بنور التوحيد يقبل الحاطر من الله تعالى، وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى لنفس، وبنور الإسلام يرد على العدو.

ومن قصر عن ترك حقائق الزهد، وتطلع إلى تمييز الخوطر، يزن الحاطر أولا بميزان الشرع، فما كان من ذلك نفلا أو رضيا يفضله، وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه، فإن استوى الحاطر أن في نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فإن النفس قد يكون لها هوى يكامن من أحدهما، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون .

وقد يلزم الحاطر بنشاط لنفس، والعبد يظن أنه ينهوض القلب، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس .

يقول بعضهم: منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة .

فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر الحق على من يكون ضعيف العلم، فلا يترك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون، وأكثر ما تدخل الآفات على لربلب القلوب والأخنيين من اليقين

واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل، وذلك لقلقة العلم بالنفس والقلب، وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعاً أنه مهما بقي عليه أثر من الهوى وإن دق وقل، يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر . ثم قد يغلب في تمييز الخواطر من هو قليل العلم، ولا يؤخذ بذلك، ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة، وقد لا يسامح بذلك بعض الخاطئين لما مكوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت.

وذكر بعض العلماء أن آلة تلك ولة الشيطان وجداً لحركة النفس والروح، وأن النفس إذا تحركت انقذح من جوهرها ظلمة تنكت في القلب همة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة.

وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي، أو دعوى حركة أو سكون، وهي آلة العقل ومحنة القلب، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة: جهل، أو غفلة، أو طالب فضول، ثم يكون من هذه الثلاثة ما يحب نفيه، فإنها ترد بخلاف مأمور، أو على وفق منهي. ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات.

وذكر أن الروح إذا تحركت انقذح من جوهرها نور ساطع، يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة: إما بفرض أمر به، أو بفضل نفع إليه، وإما بمباح يعود صلاحه إليه .

وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما اللوحيتان للمتين.

وعندي والله أعلم أن المتين يتقدمان على حركة الروح والنفس، فحركة الروح من آلة تلك، والهمة العالية من حركة الروح، وهذه

الحركة من الروح ببركة الله وحركة النفس من لذة الشيطان، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة، وهي من شؤم لذة الشيطان.

فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظاهر سر العطاء والابتلاء من معطى كريم ومهل حكيم. وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحي أثر أحدهما بالأخرى والتفطن للتيقظ يفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب انفس، ويبقى أبدا متفقدنا حاله مطالعا آثار اللمتين.

وذكر خاطر خامس وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعقل لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد، ليدخل العبد في الشئ بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب. وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب.

وذكر خاطر سائس وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزبد العلم، ولا يبعد أن يقال الخاطر السائس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق. وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك، وتارة من خاطر النفس، وليس من العقل خاطر على الاستقلال لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهبأ بها إدراك العلوم، ويتهبأ بها الانجذاب إلى دواعي النفس تارة، وإلى دواعي الملك تارة، وإلى دواعي الروح تارة، وإلى دواعي الشيطان تارة، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة. ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمتين.

وهاتان اللمتان هما الأصل، والخاظران الآخران فرع عليهما، لأن لذة الملك إذا حركت الروح، واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق. وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالغناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما

ذكرناه قبل نوضع قربه، فيكون أصل خواطر الحق لله الملك، وله الشيطان
إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطبع، فظهر
منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها، فصارت خواطر
النفس نتيجة لله الشيطان، فأصلها لسان وينتجان آخرين، وخواطر اليقين
والعقل مندرج فيهما والله اعلم .

الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر اشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، ووجود الاستباه لكان تشابههما في نفسيهما وتداخلهما، التزادى للبعض الشئ حالا، تراءى للبعض مقاما، وكلتا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق، فالحال سمي حالا لتحوّله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الدعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال، ثم يحول بظهور صفات النفس إلى أن تتحركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة، وتظهر النفس، وتنضبط، وتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة .

ثم ينزله حال المراقبة، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال.

ثم يحول حال المراقبة لتلويب السهو والغفلة في باطن العبد، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة، ويتحرك الله عبده بالمعونة، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة، فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه، وتزل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار، ويظهر بالتجلي، ثم يصير مقاما، وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار.

ثم مقام الشهادة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه،
 كما التحق بالفناء، والتخلص إلى البقاء، والترقى من عين اليقين إلى حق
 اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شفاف القلب. وذلك أعلى فروع الشهادة .
 وقد قال رسول الله ﷺ " اللهم اني أسالك إيماناً يباشر قلبي " .

قال سهل بن عبد الله: للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع
 والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه، والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه
 العقل، ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين، وهو صقال لموضع
 مخصوص فيه، بمنزلة الصقال الذي في سواد العين، ومنه تنبعث الأشعة
 المحيطة بالمرئيات، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة
 بالعلوم، وهذه الحالة التي خرق شفاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهي
 حق اليقين هي تسنى العظام وأعز الأحوال وأشرفها، ونسبة هذه الحال من
 الشهادة كنسبة الأجر من ثوب، إذ يكون ثراباً ثم طيناً ثم لبناً ثم أجراً .

فالشهادة هي الأول والأصل يكون منه الفناء كالطين، ثم البقاء
 كاللبن، ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع .

ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي شرف الأحوال، وهي
 معض موهبة لا تكتسب، سميت كل الواهب من النوازل بالعبد أحوالاً،
 لأنها غير مقصورة للعبد بكسبه، فأطلقوا القول، وتداولت النسبة الشيوخ أن
 المقامات مكاسب والأحوال السموات ومتنزل البركيات، وهذه الأحوال لا
 يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي .

قال بعضهم: الحال هو الذكر الخفى. وهذا إشارة إلى شيء مما
 ذكرناه.

وسمعت الشايخ بالعراق يقولون: الحال ما من الله ، فكل ما كان من
 طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما من العبد، فلذا لاح للمريد شيء

من الواهب والواجب قالوا هذا ما من الله وسموه حالا، إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان: الأحوال مورثات الأعمال .

وقال بعضهم : الأحوال كالبروق، فإن بقي فحدثت النفس.

وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق، وإنما مواهب، وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب، إذ الكاسب محفوفة بالواهب، والواهب محفوفة بالكاسب، فالأحوال مواجبة، والقامات طرق الواجب، ولكن في القامات ظهر الكسب وبطلت الواهب، وفي الأحوال بطلت الكسب وظهرت الواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والقامات طرقها .

وقول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه : سلوني عن طريق السموات فإني أعرف بها من طرق الأرض، إشارة إلى القامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من القامات، فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهي طرق يكون ذلك في بعض الأحوال، فإنها تطرق ثم تستلبها النفس، فاما على الإطلاق فلا، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء.

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت، فاما إذا لم تدم فهي لوائح وطوابع وبواخر، وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلفت المشايخ في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكم حكم مقامه؟

قال بعضهم: لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه.

وقال بعضهم: لا يكمل اللقَام الذي هو فيه إلا بعد ترقّيه إلى مقام فوقه، فينظر من مقامه العالي إلى ما دونه من اللقَام فيحكم أمر مقامه. والأولى أن يقال والله علم: الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه، فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلكه ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب يرتقى إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالوَهبة، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقّيه إليه، فلا يزال العبد يرتقى إلى المقامات بزياد الأحوال، فعلى ما ذكرناه يتضح تناخل المقامات والأحوال حتى التوبة، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام، وفي الرزهد حال ومقام، وفي التوسكل حال ومقام، وفي الرضي حال ومقام.

قال أبو عثمان الحيري: منذ أربعين سنة ما ألقمني الله في حال فكرهته. أشار إلى الرضي. ويكون منه حلالاً ثم يصير مقاماً، والمحبة حال ومقام، ولا يزال العبد يتتوب بعُروق حال التوبة حتى يتوب، وطروق حال التوبة بالانزجار أولاً.

قال بعضهم: الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة، فإذا تيقظ بصر الصواب من الخطأ.

وقال بعضهم: الزجر ضياء في القلب يبصر به خطأ قصده

والزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه: زجر من طريق العلم، وزجر من طريق العقل، وزجر من طريق الإيمان، فيتنازل التائب حال الزجر وهي موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة، فلا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاماً.

وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال قربه لئلا ترك الاشتغال بالدنيا، وتقبح له الإقبال عليها فتتمحو أثر حاله بدلالة شربه النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة، حتى تتلصصه للعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهداً، ويصير الزهد مقامه. ولا تزال حال التوكل تفرع باب قلبه حتى يتوكل، وهكذا حال الرضى حتى يطمئن على الرضى، ويصير ذلك مقامه .

وهنا لطيفة، وذلك أن مقام الرضى والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع، ولا يحكم ببقاء حال الرضى مع وجود داعية الطبع، وذلك مثل كراهة راضى بحكم الطبع، ولكن علمه بمقام الرضى يغمر حكم الطبع، وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية الفمورة بالعلم لا يخرج به عن مقام الرضى، ولكن يفقد حال الرضى، لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع، فيقال فكيف يكون صاحب مقام في الرضى ولا يكون صاحب حال فيه، والحال مقدمه المقام، والمقام أثبت ؟

نقول، لأن المقام لما كان مشوباً بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه، والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع، فحال الرضى أصطف، ومقام الرضى أمكن، ولا بد للمقامات من زائد الأحوال، فلا مقام إلا بعد سابقة حال، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال، فمنها ما يصير مقاماً، ومنها ما لا يصير مقاماً، والسرف فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر، والموهبة بطننت، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن.

فلما كان في الأحوال الموهبة غالبية لم تنقيد وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاماً، ومقدورات الحق غير متناهية، ومواهبه غير متناهية، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى، ومكالة موسى، وخلة إبراهيم عليه السلام، لطلبت ما وراء ذلك، لأن مواهب الله لا تنحصر، وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء، ولكن هذه

إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه، وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى، لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة، وشرع باب الطلب، واستنزل بركة الزيد بقوله عليه السلام: " كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك لي في صبيحة ذلك اليوم " .

وهي دعائه ﷺ " اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف فيه عملي، ولم تبلغه نهيتي وأمنيته، من خير وعنده أحد من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فأنا أرغب إليك وأسألك إياه " .

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر، والأحوال مواهب، وهي متصلة بكلمات الله التي تنفذ البحر دون نفاذها، وتنفذ أعداد الرمال دون أعددتها.

والله النعم للمعطي .

الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله، قال أنا أبو منصور بن خيرون إجازة، قال أنا أبو محمد الحسن ابن علي بن محمد الجوهري إجازة، قال أنا أبو عمرو محمد بن عباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد، قال أنا الحسين بن الحسن للروزي، قال أنا عبد الله بن المبارك، قال أنا الهيثم ابن حميل قال أنا حكيم بن سليم اللداني، قال سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال، أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله إني رجل لرب اللسان وأكثر ذلك على أهلي، فقال له رسول الله ﷺ "أين أنت من الاستغفار، فإني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة".

وروى أبو هريرة رضي الله عنه في حديث آخر "فإني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة".

وروى أبو بردة قال، قال رسول الله ﷺ "لنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة".

وقال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١)

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (٢)

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (٣)

(١) سورة البور، آية رقم ٣١.

(٢) سورة البقرة، آية رقم ٢٢٢.

(٣) سورة التحريم، آية رقم ٨٠.

التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له .

وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرايتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة، ثم رأيتها فى إفادة الولادة العنوية الحقيقية بمثابة الطوائع الأربع التى جعلها الله تعالى بأجراء سننه مفيدة للولادة الطبيعية .

ومن تحقق بحقائق هذه الأربع بالملكوت السموات، ويكشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى النزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهبات وتاكلت.

فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح، والثانى الزهد فى الدنيا، والثالث تحقيق مقام العبودية بنوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقلبية من غير فتور وقصور

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس. واتفق العلماء الزاهدون والشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات، وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالاً، بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه.

ونبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تخرج فى صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها .

أولها بعد الإيمان التوبة، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، ولا بد فى ابتلائها من وجود زاهر،

ووجدان الزاجر حال، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال موهبة، وحال الزاجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافى: مالي أراك مهموما؟ قال: لأنى ضال ومطلوب ضللت الطريق والقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطريق إلى القصد لطلبت، ولكن سنة الغفلة أدرى بى، وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر.

وقال الأصمعى: رايت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء، فقلت له، ألا تمسح عينيك؟ فقال: لا لأن الطبيب زجرنى، ولا خير فيمن لا ينزجر.

فإن الزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى، ولا بد من وجودها للتائب. ثم بعد الإنزجار يجد العبد حال الانتباه.

قال بعضهم: من نزم مطالمة الطوارق انتبه.

وقال أبو يزيد، علامة الانتباه خمس: إذا ذكر نفسه اهتقر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتير، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى أشعر.

وقال بعضهم، الانتباه أوائل دلالات الخير، وإذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ، فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطالب لطريق الرشد فيطلب، وإذا طالب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ.

قال فارس: أولى الأحوال التيقظ والاعتبار.

وقيل: التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة.

وقيل: إذا صحبت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة.

وقيل : اليقظة خردة من جهة الولي لقلوب الخائفين قلوبهم على طلب التوبة فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة .

فهذه احوال ثلاثة تتقدم التوبة .

ثم التوبة هي استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة .

نقل عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنها قبل أن توزنوا، وتزينوا للمعرض الأكبر على الله . ﴿يَوْمَ يَكْفُرُ عَمَّا كَانُ خَافِيَةً﴾^(١) .

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات .

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واللييلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبد، واستيلاء الغفلة عليه، لكي لا يستعبد الهوى، وتسترقه الدنيا . فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى، وبسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار، لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكث في القلب نكتة سوداء، وتعقد عليه عقدة .

والمتفقد المحاسب يهين الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته، ووقته منورا معمورا بنور صلاته .

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات هي قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطأ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعينه نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعينه، لتصيق المحاسبة مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، لموضع صدقه في حسن الاقتداء، وحرصه على تحقيق مقام العباد، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد، من حسنت رعايته دامت ولايته .

وسئل الواسطي، أى الأعمال افضل ؟ قال : مراعاة السر، والمحاسبة في الظاهر، والمراقبة في الباطن، ويكمل أحدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، وبصيران مقامين شريفيين يصحان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي، قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول، سمعت الحسن الفارسي يقول، سمعت الجريري يقول، أمرنا هذا مبنى على الصلح، وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهره قائما .

قال المرتضى، المراقبة مراعاة السر للاحطة الحق في كل لحظة ولفظة .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ^(١)

وهذا هو علم القيام، وبذلك يتم علم الحال .

ومعرفة الزيادة والنقصان هو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله، وكل هذا ملازم لصحة التوبة، وصحة التوبة ملازم لها، لأن الحواطر مقدمات العزائم، والعزائم مقدمات الأعمال، لأن الحواطر تحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح، ولا تتحرك إلا بتحريك القلب بالإرادة، وبالرقابة، حرس مواد الحواطر الرديئة، فصار من تمام الرقابة تمام التوبة، لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح، لأن بالرقابة اصطلام عروق إرادة الكلاله من القلب، وبالحاسبة استتراك ما انفلت من الرقابة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمي قال، سمعت أبا عثمان المغربي يقول : أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والرقابة، وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة .

قال إبراهيم بن أدهم : إذا صدق العبد في توبته صار منيباً. لأن الإنابة ثلثي درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشي، النيب الراجع عن حكل شيء يشغله عن الله إلى الله .

وقال بعضهم: الإنابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفي الإنابة، والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدي الحق، مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال، والمجاهدة لتحقيق الرعاية والرقابة .

قال أبو سليمان، ما استحسنتم من نفسى عملاً فاحتسبه .

وقال أبو عبد الله السجزي: من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتلائه فيروض نفسه ثانياً، ومن لم يزن نفسه يميزان الصديق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال. ورؤية

عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وهو في تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى قصالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " المجاهد من جاهد نفسه " ولا يتم ذلك إلا بالصبر، والفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه، وصدق المراقبة له بالقلب وحسم موائد الخواطر .

والصبر ينقسم إلى فرض وفضل، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات. ومن الصبر الذي هو فصل الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، ومكتما للصائب والأوجاع، وترك الشكوى، والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على مكتم النج والكرامات، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر، فإذا حقيقة الصبر كائنة في التوبة كينونة المراقبة في التوبة، والصبر من أعز مقامات اللوثنين، وهو داخل في حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء، أي شئ أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى في كلامه في نيف وتسعين موضعا، وما ذكر شيئا بهذا العدد .

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر ومع شرفه .

ومن الصبر الصبر على النعمة، وهو أن لا يصرفها في معصية الله تعالى، وهذا أيضا داخل في صحة التوبة .

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة: بلينا بالضراء فصيرنا، وبلينا بالسراء فلم نصير .

ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضى والغضب، والصبر عن محمدة الناس، والصبر على الخمول والتواضع . والذي داخل في الزهد وإن لم يكن داخلًا في التوبة . وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد، وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمانينة النفس، وطمانينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة . فالنفس إذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية، وقلية الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبانها واستعصائها . والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشرستها إلى اللين، لأن النفس بالمحاسبة والراقبة تصفو وتنظف نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضى ومقامه، وتطمئن في مجارى الأقدار .

قال أبو عبد الله النجاشي، لله عباد يستحيون من الصبر، ويتلقفون مواضع أقداره بالرضى تلقفاً .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت وما لي سرور إلا موافع القضاء .

قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين وصاه " اعمل لله باليقين في الرضى، فإن لم يكن فإن في الصبر خيراً كثيراً " .

وهي الخبر عن رسول الله ﷺ " من خير ما أعطى الرجل الرضى بما قسم الله تعالى له " .

فالأخبار والأثار والحكايات في فضيلة الرضى وشرفه أكثر من أن تحصى، والرضى ثمرة التوبة النصوح، وما تخلف عبد عن الرضى إلا يتخلفه عن التوبة النصوح، فإذا تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر، وحال

الرضى ومقام الرضى، والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح، لأن خوفه حملته على التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاءه ما خاف، فالرجاء والخوف بتلامان فى قلب المؤمن، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال " كيف تجدك؟ قال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال : ما اجتماعا فى قلب عبد فى هذا الوطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف " .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ^(١) هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعنى عمل .

فالتائب خاف ، فتاب ورجا الغفرة، ولا يكون التائب تائبا إلا وهو راج خائف .

ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن الكار، واستعان بنعم الله على طاعة الله ، فقد شكر النعم، لأن كل جارية من الجوارح نعمة، وشكرها قيدا عن العصية، واستعمالها فى الطاعة . وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم .

فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة حال الزجر، وحال الانتباه، وحال التيقظ ومخالفة النفس، والتقوى، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة، والصبر، والرضى، والحاسبة، والراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف والرجاء.

وإذا صحت التوبة النصوح وتركت النفس، وانجلت مرآة القلب، وبان قبح الدنيا فيها، فيحصل الزهد، والزاهد يتحقق فيه التوكل، لأنه لا يزهد فى الوجود إلا لاعتماد على الوعود، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين

التوكل، وكلما بقى على العقد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهد في الدنيا، وهو ثالث الأربعة.

اخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن حIRON، قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر فبدأ فاطمة رضي الله عنها فراها قد أحدثت في البيت سراً وزوائد في يديها، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل، ثم جلس، فجعل ينكت في الأرض ويقول: مالي والدنيا، مالي والدنيا، هرات فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك السر.

فأخضت السر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب إلى النبي ﷺ فقل له قد تصدقت به فصعده حيث شئت، فأتى بلال إلى النبي ﷺ فقال: قالت فاطمة قد تصدقت به فصعده حيث شئت، فقال النبي ﷺ بأبي وأمي قد فعلت بأبي وأمي قد فعلت اذهب فبعه.

وقيل في قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ^(١) قيل الزهد في الدنيا.

سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الزهد فقال: هو أن لا تهالي بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: ويلكم أي مقدر لجناح بعوضة أن يزهد فيها.

وقال أبو بكر الواسطي: إلى متى تصول بترك كنيف، وإلى متى تصول بإعراصك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة.

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضاً، لأن صدق توكله مكنه من زهده في الوجود، فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين القامين، استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها.

وترتيب التوبة مع للرغبة وارتباط أحدهما بالآخرى أن يتوب العبد ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً، ثم يرتق من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعنى، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والحاسبة من الظاهر إلى الباطن، وتستولى الرقابة على الباطن، وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر العصية عن باطنه ثم خواطر الفضول، فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾^(١) أمره الله تعالى بالاستقامة في التوبة أمره له ولأتباعه وأمته.

وقيل: لا يكون المرید مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة. ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب في النادر إذا ابتلى بذنب ينمحي أثر الذنب من باطنه في الحلف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك، والندم توبة، فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً.

فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غذائه لعشائه، ولا في عشاءه لغذائه، ولا يرى الادخار، ولا يكون له تعلق هم يفد، فقد جمع في هذا الزهد والفقر، والزهد الفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة، لأن المقير عادم للشيء اضطراراً، والزاهد تارك للشيء اختياراً، وزهد يحقق توكله، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، وحبس النفس له يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه، ويجمع بالتوبة والزهد ككل المقامات.

والزهد والتوبة إذا اجتماعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يحوز هذه الثلاثة رابع به تمامها، وهو دوام العمل، لأن الأحوال السنية يتكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسر بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل.

وكثير من الزهاد لتحقيقين بالزهد للمستقيمين في التوبة تحلموا عن كثير من سني الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع، ولا يراد الزهد في الدنيا إلا لكمال الفراغ للاستعان به على إدامة العمل لله تعالى، والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذا كرا أو تالبا أو مصليا أو مراقبا لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعي، أو مهم لا بد منه طبيعي، فإذا استولى العمل على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفر باطنه عن العمل، فإذا كان مع الزهد والتوقي متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا في العبودية.

قال أبو بكر الوراق: من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق.

وسئل سهل بن عبد الله التستري: أي منزلة إذا قام العبد بها مقام العبودية؟ قال: إذا ترك التدبير والاختيار.

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتي، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختيار الله تعالى لزوال هواه، ووقور علمه، وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

قال يحيى بن معاذ الرازي: ما قام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار، فإنك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو ان يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها، لأن ترك التدبير هباء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده، ورده إلى الاختيار تصريف بالحق، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود مكان بالعبد إلى وجود بصير بالحق، وهذا العبد ما بقى عليه من الإعوجاج ثرة، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية، وعمر العلم والعمل طاهره وباطنه، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل، متمسكة بالاستكانة والافتقار، متعققة بقول رسول الله ﷺ : «لا تكني إلى نفسى طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فاضيع، اكملني كلاءة الوليد ولا تغل عني».

الباب الستون

في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب

قوتهم في التوبة:

قال رويم: معنى التوبة أن يتوب من التوبة.

قيل معناه قول رابعة: استغفر الله العظيم من قلة صدقي في الولي،
استغفر الله.

وسئل الحسن الغازلي عن التسوية؟ فقال: تسألني عن توبة الإنابة أو
عن توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ فقال: أن تخاف من الله
عز وجل من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك.

وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في
صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه. وهذه توبة
الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

قال ذو النون: توبة العوام من اللخب، وتوبة الخواص من الغفلة،
وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويرصكه، ثم يخطر
ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته، فقال: الحلاوة طبع
البشرية ولا بد من الطبع، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه
بالشكوى وينكره بقلبه، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله أن ينسبه
ذلك ويشغله بعيره من ذكره وطاعته.

قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره.

وهذا الذي قاله سهل مكاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته. والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه، ويسهل عليه ذلك.

وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف. ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأي حلاوة تبقى في قلبه، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله.

وسئل السوسي عن التوبة فقال: التوبة من كل شيء ذمة العلم إلى ما مدحه العلم.

وهذا وصف بعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس. وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام.

وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال أبو الحسن النوري: التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى:

قولهم في الورع:

قال رسول الله ﷺ «ملاك دينكم الورع».

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي إجازة قال أما أبو سعيد الخلاف قال حدثني ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن حبيب بن

عبيد عن أبي العبداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ على نهر، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال بياحه الله عز وجل فوما ينفعهم.

قال عمر بن الخطاب: لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا.

قال معروف الكرخي: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الدم.

نقل عن الحارث بن أسد الحاسبي أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

سئل الشبلي عن الورع، فقال: الورع أن تتورع أن ينشتت قلبك من الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان النرازي: الورع لول الزهد، فكما أن القناعة طرف من الرضي.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تاويل.

سئل الخواص عن الورع، فقال: أن لا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضي، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال: سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول: اعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه، ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً.

وقال الخواص: الورع دليل الخوف، والخوف دليل العرفة، والعرقة دليل القربة.

قولهم في الزهد:

قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، أو يزهد فيما هو له فيكف زهد فيه وهو معه وعنده، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواضع. يشير إلى الأقسام التي سبقت بها الأقسام، وهذا لو اطردهم هدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولكن مقصود الشبلي أن يقلل الزهد في عين المعتد بالزهد لنلا يغتر به.

قال رسول الله ﷺ: «إذا رايتم الرجل قد اوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة».

وقد سمي الله عز وجل الراغبين علماء في قصة فارون، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ...﴾^(١) قيل: هم الزاهدون.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم، وكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾^(٢) قيل عن الدنيا.

وهي الخير: العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم.

(١) سورة القصص: الآية ٨٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

وجاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تنزع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين.

وقال سهل: أعمال البر كلها في موازين الزهاد، وثواب زهادهم زيادة لهم.

وقيل: من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود، ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم.

قال السري: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، وبجميع هذا الحظوظ للآلية والجاهلية، وحب التنزلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء.

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة.

وقال بعضهم: لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم.

وعندي أن الزهد في الزهد غير هذا، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد، لأن الزاهد اختار الزهد ولزاده ولزادته تستند إلى علمه، وعلمه قاصر، فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده، فترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ، أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشيء من الدنيا، فما يدخل بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهده، فيكون دخوله في الشيء من الدنيا بالله ويأذن منه زهد في الزهد.

والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعلمها، إن تركها تركها بالله، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد في الزهد. وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام.

وفوق هذا مقام آخر في الزهد، وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام آخر في الزهد، فيزهد زهدا ثالثا، ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها، وأعينت عليه موهوبة، ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق، فقد يختار تركها حينما تأسيا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها في مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن ترك شاو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقاً بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم.

وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين، زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا دنيا بالله، كما زهدوا لولا لله.

قولهم في الصبر:

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله، وهو أفضل الخدمة وأعلاها

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر في الصبر، أي لا تطالع فيه المرج.

قال الله تعالى: ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٧﴾.

وقيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، فالصبر عرك النفس، وبالعرك تلين، والصبر جبار في الصابر مجرى الأنفاس، لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهي ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا، والعلم يدل والصبر يقبل، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر، ومن كان العلم

سانسه في الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره
ومسكنه

والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون
الآخر، ومصدرهما الفريزة العقلية، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما،
وبالصبر يتحامل على النفس، وبالعلم يترقى الروح، وهما الرزخ والفرقان بين
الروح والنفس، ليستقر كل واحد منهما في مستقره، وفي ذلك صريح العدل
وصحة الاعتدال، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل
أحدهما على الآخر، أعنى النفس والروح، وبیان ذلك يدق.

وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) كل أجير أجره بحساب، وأجر الصابرين بغير حساب.

وقال الله تعالى لنبيه ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾^(٢) اضاف الصبر
إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به.

قيل، وقف رجل على الشبلي، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال:
الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا،
فغضب الشبلي وقال: ويحك أي شيء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله، قال،
فصرخ الشبلي صرخة مكاد أن تتلف روحه.

وعندي في معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشد الصبر على
الصابرين وجه، وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقدمات الشاهدة،
يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا، وتنطبق بصيرته خجلا ونوبانا،
ويتغيب في مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظائم أمر التجلي، وهذا من
أشد الصبر، لأنه يود استئمانه هذه الحال، تأدية لحق الجلال.

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.

(٢) سورة البحل، الآية ١٢٧.

والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال. وكما أن النفس
منازعة لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله
تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة، متصبر، وصابر، وصبار، فالتصبر
من صبر في الله، فمرة يصبر، ومرة يجزع. والصابر من يصبر في الله والله ولا
يجزع، ولكن يتوقع منه الشكوى، وقد يمكن منه الجزع. وأما الصبار فذاك
الذي صبره في الله والله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلاء لا يجزع ولا يتغير
من جهة الوجود والحظيرة لا من جهة الرسم والخلق، وإشارته في هذا ظهور
حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

وكان الشبلي يتمثل بهذين البيتين:

إن صوت الحب من ألم الشو في وخوف الفراق يورث ضرر
صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح الحبيب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ
الأعلى للرسول ﷺ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا
صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾^(١).

وسئل السري عن الصبر فتكلم فيه، فحب على رجله عقرب فجعل
يضر به بإبرته، فقيل له: لم لا تدفعه؟ قال: استحي من الله تعالى أن أتكلم في
حال ثم أخالف ما أتكلم فيه.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن أبي عبد
الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الرغائي يقول: سمعت
الجيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان

بالعقل، واكرم العقل بالصبر، فالإيمان زين للمؤمن، والعقل زهر للإيمان،
والصبر زين للعقل.

وانشد عن إبراهيم الخواص رحمه الله:

صبرت على بعض الأذى خوف مكله	وبلغت عن نفسي لنفسي فعزت
وجرعتها المكروه حتى تكربت	ولو لم أجرعها إذا لأشمرت
ألا رب ذل سابق للنفس عزة	ويارب نفس بالتذل عزت
إذا ما ملحت الكف التمس الفنى	إلى غير من قال أسألوني فشلت
ساصبر جهدى إن في الصبر عزة	ولرضى بنهاى وإن هى قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما انعم الله على عبد من نعمة ثم
انتزعها فعاذه مما انتزع منه الصبر إلا كان ما عاذه خيرا مما انتزعه
منه. وانشد لسمنون:

تجرعت من حاله نعمى وابؤسا	زمانا إذا أجرى عز إليه احتسى
فكم غمرة قد جرعتنى كؤوسها	فجرعتها من بحر صبر اكؤوسا
تدرعت صبرى والتحفت صروقه	وقلت لنفسي الصبر أو فاهتكى أسى
خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها	لساخت ولم تترك لها الكف ملمسا

قولهم في الفقر:

قال ابن الجلاء: الفقر أن لا يكون لك فإنا كان لك لا يكون لك حتى
تؤثر.

وقال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما
حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وقال النوري: نعت الفقراء السكون عند العدم، والبذل عند الوجود.

وقال غيره: والاضطراب عند الوجود.

وقال الدراج: فتشت كنف استاذي اريد مكحلة، فوجدت فيها قطعة
هتجرت، فلما جاء قلت له: انى وجدت في كنفك هذه القطعة، قال: قد
رايتها ردها، ثم قال: خذها واشتر بها شيئا، فقلت: ما كان امر هذه القطعة
بحق معبودك؟ فقال: ما رزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها،
فأردت أن أوصى أن تشد في كنفى فأردها إلى الله.

وقال ابراهيم الخواص: الفقر رداء الشرفه ولباس الرسلين، وجلباب
الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق، فقال: لا يسأل، ولا يرد، ولا
يحبس.

وقال أبو على الروذبارى رحمه الله: سألني الزقاق فقال: يا أبا على لم
ترك الفقراء أخذ البقرة في وقت الحاجة؟ قال: قلت: لأنهم مستغنون بالعطى
عن المعطاء، قال: نعم ولكن لي شيء آخر، فقلت: هات لى ما وقع لك، قال:
لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود، إذ الله هافتهم ولا تضرهم الفاقة، إذ الله
وجودهم.

قال بعضهم: المقر وقوف الحاجة على القلب، ومحوها عما سوى الرب.

وقال السوحي: الفقير الذى لا تغنيه النعم، ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المقر ان لا يستغنى إلا بالله، ورسمه عدم
الأسباب كلها.

وقال أبو بكر الطوسى: بقيت مدة أسأل من معنى اختيار أصحابنا لهذا
الفقر على سائر الأشياء، فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى، حتى سألت نصر
ابن الحمامى فقال له: لأنه أول منزل من منازل التوحيد، ففقت بذلك.

وسئل ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى، ثم ذهب ورجع ثم قال
إني لم أسكت إلا درهم كان عندي فذهب فأخرجته واستحييت من الله
تعالى أن أتكلم في الفقر وعندي ذلك، ثم جلس وتكلم.

قال أبو بكر بن طاهر: من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة، فإن كان
ولا بد لا تجاوز رغبته كمايته.

قال فارس: قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والصر: لم لا تسأل
فيطعموك؟ فقال: إني أخاف أن أسألهم فيمنعوني، فلا يفلحون. وأنشد
لبعضهم:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه	فقلت خلعة ساق عبده الجرعاً
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما	قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحرى الملبس أن تلقى الحبيب به	يوم تتزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي ما تم إن غبت يا أملی	والعيد ما دمت لي مرأى ومستمعا

قوتهم في الشكر:

قال بعضهم: الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية النعم.

وقال يحيى بن معاذ الرزقي: لست بشاكر ما دمت تشكر، وغاية الشكر
التحير، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها.

وفي أخبار داود عليه السلام: إلهي كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن
أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك، فلو حى الله إلهه: إذا عرفت هذا فقد
شكرتني.

ومعنى الشكر في النعمة هو الكشف والإظهار، يقال شكر وكشر إذا
كشف عن غمره وأظهره.

فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر، وباطن الشكر ان تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على العصية، فهو شكر النعمة.

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم:
 أوليتني نعماً أبوح بشكرها وكفيتني كل الأمور بأسرها
 فلا شكر لك ما حبيت وإن لمست فتشكرتك أعظمي في قبرها

قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء».

وقال رسول الله ﷺ: «من مبتلى الصبر، وأعطى الشكر، وظلم الغفر، وظلم الاستغفر، قيل فما باله؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتلون».

قال الجنيد، فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وفي الحديث: «أفضل الذكور لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾^(١)

قال: الظاهرة العوالم والعنى، والباطنة البلاوى والفقر، فإن هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء.

وحقيقة الشكر أن يرى جميع القضى له به نعماً غير ما يضره في دينه، لأن الله تعالى لا يقضى للعبد للؤمن شيئاً إلا وهو نعمة في حقه، فإما عاجلة يعرفها ويفهمها، وإما آجلة بما يقضى له من الكار، فإما أن تكون درجة له أو تمحصياً أو تكميراً، فإذا علم أن موله أنصح له من نفسه، وأعلم بمصالحه، وأن كل ما منه نعم فقد شكر.

قولهم في الخوف :

قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله».

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضاً وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه».

قال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقيل: الخائف الذي لا يخاف غير الله. قيل: أي لا يخاف لنفسه إنما يخاف إحلاله، والخوف للنفس خوف العذوبة.

وقال سهل: الخوف ذكر والرجاء أنثى، أي منهما تتولد حقائق الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ...﴾^(١)

قيل: هذه الآية قطب القرآن، لأن مدار الأمر كله على هذا.

وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، فقال تعالى: ﴿... هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ...﴾^(٢)، وقال: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾^(٣)

(١) سورة النساء: الآية ٣٦

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨

وقال ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنِ خَشِيَ رَبَّهُ ۝﴾^(١)

وقيل سهل، كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف.

وقال أيضاً، العلم كسب الإيمان، والخوف كسب العرفة.

وقال ذو النون، لا يسقى المحب كل من للحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه.

وقال الفضيل بن عياض، لا قبل لك تخاف الله اسكت فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم كذبت، فليس وصفك وصف من يخاف.

قولهم في الرجاء:

قال رسول الله ﷺ، «يقول الله عز وجل: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يقول: وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي في ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بي».

قيل، جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال من يلي حساب الخلق؟ فقال، الله تبارك وتعالى. قال، هو بنفسه؟ قال، نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ، مع ضحكك يا أعرابي؟ فقال، إن الكريم إذا قدر عما، وإذا حاسب سامح».

وقال شاه الكرمانلي، علامة الرجاء حسن الطاعة.

وقيل، الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال.

وقيل، قرب القلب من ملاطفة الرب.

قال أبو علي الروذيلري، الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه.

قال أبو عبد الله بن خفيف، الرجاء لفتح القلوب لرؤية كرم المرجو.

قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين: ولا يكون خائفا إلا وهو راج، ولا راجيا إلا وهو خائف، لأن موجب الخوف الإيمان، وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف، ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه: خف الله تعالى خوفا لا تآمن فيه مكره، وارجه أشد من خوفك.

قال: فكيف استطيع ذلك ولتأني لي قلب واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن لنو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

قولهم في التوكل:

قال السري: التوكل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال الجنيد: التوكل أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل: كل المقامات لها وجه وقصا غير التوكل فإنه وجه بلا قصا.

قال بعضهم: يريد توكل العناية لا توكل الكفاية.

وقوله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)

وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢)

وقال لنبيه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ...﴾^(٣)

(١) سورة المائدة: الآية ٢٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥١.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٥٨.

وقال ذو النون، التوكل ترك تكبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال ابو بكر الدقاق، التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد.

وقال ابو بكر الواسطي، اصل التوكل صدق الغاية والافتقار، وأن لا يفارق التوكل في أمانيه، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره.

وقال بعضهم، من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحضر لنفسه قبرا يدفنها فيه، وينس الدنيا وأهلها، لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله.

وقال سهل، أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل بقلبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال حميدون القصار، التوكل هو الاعتصام بالله.

وقال سهل أيضا، العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

وقال، التقوى واليقين مثل كفتي الميزان، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان.

ويضع لي أن التوكل على قدر العلم بالوكيل، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا، ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله.

ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعقل في القسمة، وإن الأقسام نصبت بإزاء النجوم لهم عدلا وموازنة، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس، وكل ما أحسن بشيء يقدح في توكله يراه من منبع النفس،

هناقصان التوكل يظهر بظهور النفس، وكماله يثبت بعبية النفس، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم، وإنما شغلهم في تغيب النفس بتقوية مواد القلب، فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل، فصح التوكل، والعبد غير ناظر إليه، وكلما تحرك من النفس بقية يرد على صميرهم سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾^(١) فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه، ويصير التوكل حينئذ اضطراراً، ولا يقدح في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط، لأنه يرى الأسباب مواتاً لا حياة لها إلا بالتوكل، وهذا توكل خواص خواص أهل المعرفة.

قولهم في الرضى:

قال الحارث: الرضى سكون القلب تحت جريان الحكم.

وقال ذو النون: الرضى سرور القلب بمر القضاء.

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عنا، فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضى من لست عنه براض؟ فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مكسوره بالنعمة وقال سهل: إذا اتصل الرضى بالرضوان اتصلت بالطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وقال رسول الله ﷺ: «تأق طعم الإيمان من رضى بالله رباً».

وقال عليه السلام: «إن الله تعالى يحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وقال الجنيد: الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلوب.

فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداة إلى الرضى، وليس الرضى والمحبة كالخوف والرجاء، فإنهما حالان لا يقاربان العبد في الدنيا والآخرة، لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضى والمحبة.

وقال ابن عطاء: الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، أنه اختار له الأفضل فيرضى له، وهو ترك السخط.

وقال أبو تراب: ليس ينال الرضى من الله من الدنيا في قلبه مقدر.

وقال السري: خمس من أخلاق القربين: الرضى عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحبيب إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال الفضيل: الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئاً.

وقال ابن شمعون: الرضى بالحق، والرضى له، والرضى عنه، فالرضى به مدبراً ومختاراً، والرضى عنه قاسماً ومعطياً، والرضى له إلهاً ورباً.

سئل أبو سعيد: هل يجوز أن يكون العبد راضياً ساخطاً؟ قال: نعم يجوز أن يكون راضياً عن ربه، ساخطاً على نفسه وعلى كل قاطع بقطعه عن الله.

وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول: الفقير أحب إلى من الغنى، والسقيم أحب إلى من الصحة، قال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له.

وقال علي رضى الله عنه: من جلس على بساط الرضى، لم يله من الله مكروه أبداً، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال.

وقال يحيى: يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى بما عمل، وتخلص فيما تعمل.

وقال بعضهم: الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، بقولك إن أعطيتنى قبلت، وإن منعتنى رضيت، وإن تركتني عبت، وإن دعوتني أجبت.

قال الشبلي رحمه الله بين يدي الجنيد، لا حول ولا قوة إلا بالله. قال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر. فقال صدقت. قال، فضيق الصدر ترك الرضى بالقضاء.

وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضى، وذلك أن الرضى يحصل لإشراح القلب وانفساحه، وإشراح القلب من نور اليقين. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ...﴾^(١)

فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر، وانفتحت عين البصيرة، وعاین حسن تدبير الله تعالى، فينتزع السخط والتضجر، لأن اتساع القدرة يتضمن حلالة الحب، وفعل المحبوب بموقع الرضى عن الحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لغة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه، كما قيل: وكل ما يفعل للمحبيب محبوب.

الباب الجاهلي والستوي في ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال، أنا أبو طالب الزيني قال، أخبرتنا كريمة للروزية، قالت أنا أبو الهيثم الكشمهيني، قال أنا أبو عبد الله القزبري، قال أنا أبو عبد الله البخاري، قال حدثنا سليمان بن حرب، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل، قال، أنا أبو بكر بن خلف، قال أنا أبو عبد الرحمن، قال أنا أبو عمر بن حيوة، قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه، قال حدثني بشر بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن عتبة عن العرباض بن سارية قال، كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد».

فكان رسول الله ﷺ طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى، بكلية، وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم، والجلبة تتقاضاه بضد العلم، مثل أن يكون راضيا، والجلبة قد تكره، ويكون البطر إلى الانقياد لا إلى الاستعصاء بالجلبة، فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع

والمحبة وجوه وبواعث، للحبة في الإنسان متنوعة.

فمنها محبة الروح، ومحبة القلب، ومحبة النفس، ومحبة العقل.

فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ذَكَرَ الْأَهْلُ وَالنَّالُ وَالنَّاءُ الْبَارِدَ، مَعْنَاهُ اسْتِنْصَالُ عُرُوقِ الْمَحَبَّةِ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَكُونَ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى غَالِبًا، فَيُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَكُلِّيَّتِهِ، حَتَّى يَكُونَ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى أَغْلَبَ فِي الطَّبِيعِ أَيْضًا وَالْجَبَلَةِ مِنْ حُبِّ النَّاءِ الْبَارِدِ، وَهَذَا يَكُونُ حُبًّا صَافِيًّا لَخَوَاصِّ تَنْخُمِرُ بِهِ وَبِنُورِهِ نَارُ الطَّبِيعِ وَالْجَبَلَةِ، وَهَذَا يَكُونُ حُبِّ الذَّاتِ عَنْ مَشَاهِدَةٍ بِعُكُوفِ الرُّوحِ وَخُلُوصِهِ إِلَى مَوَاطِنِ الْقَرَبِ.

قَالَ الْوَاسِطِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ كَمَا أَنَّهُ بِذَاتِهِ يُحِبُّهُمْ كَذَلِكَ يُحِبُّونَ ذَاتَهُ، فَالْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَى الذَّاتِ دُونَ النُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَحَبُّ شَرْطُهُ أَنْ تَلْحَقَهُ سَكْرَاتُ الْمَحَبَّةِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فِيهِ حَقِيقَةً.

فَإِذَا الْحُبُّ حُبًّا نَافِعًا، حُبُّ عَامٍ وَحُبُّ خَاصٍّ، فَالْحُبُّ الْعَامُ مُفسَّرٌ بِامْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَرَبَّمَا كَانَ حُبًّا مِنْ مَعْنَى الْعِلْمِ بِالْأَلَاءِ وَالنِّعْمَاءِ، وَهَذَا الْحُبُّ مَخْرُجُهُ مِنَ الصِّفَاتِ. وَقَدْ ذَكَرَ جَمْعٌ مِنَ الشَّايِخِ الْحُبِّ فِي الْقَامَاتِ، فَيَكُونُ النَّظَرُ إِلَى هَذَا الْحُبِّ الْعَامِ الَّذِي يَكُونُ لِكَسْبِ الْعَبْدِ فِي مَدْخَلٍ.

وَأَمَّا الْحُبُّ الْخَاصُّ فَهُوَ حُبُّ الذَّاتِ عَنْ مَطَالَعَةِ الرُّوحِ، وَهُوَ الْحُبُّ الَّذِي فِيهِ السَّكْرَاتُ وَهُوَ الْإِصْطِنَاعُ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ لِعِبْدِهِ وَاصْطِفَاؤُهُ إِيَّاهُ، وَهَذَا الْحُبُّ يَكُونُ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ مُحَضٌّ مُوَهِّبٌ لَيْسَ لِلْكَسْبِ فِيهِ مَدْخَلٌ، وَهُوَ مَفْهُومٌ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَحِبُّ إِلَى مِنَ النَّاءِ الْبَارِدِ» لِأَنَّهُ كَلَامٌ عَنْ وَجْدَانِ رُوحٍ تَلْتَدُ بِحُبِّ الذَّاتِ.

وَهَذَا الْحُبُّ رُوحٌ، وَالْحُبُّ الَّذِي يَظْهَرُ عَنْ مَطَالَعَةِ الصِّفَاتِ وَيُطْلَعُ مِنْ مَطَالَعِ الْإِيمَانِ قِبَالِ هَذَا الرُّوحِ. وَلَمَّا صَحَّتْ مَحَبَّتُهُمْ هَذِهِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(١)

لأن المحب يدل لمحبيه ولحبيب محبوه، وينشده

لعين تفدى ألف عين وتتقي ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو في الأحوال كالتوبة في القامات، فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر القامات، من الزهد والرضى والتوكل على ما شرحناه أولاً، ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والحو وغير ذلك.

والتوبة لهذا الحب بمثابة الجسمان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة النصوح، وعند ذلك لا يتقلب في أطوار القامات، لأن التقلب في أطوار القامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين، ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾^(١)، ومن قوله تعالى ﴿...وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾^(٢) أثبت كون الإنابة سبباً للهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتناء غير معلل بالكسب، فقال تعالى ﴿...اللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...﴾^(٣).

فمن أخذ في طريق المحبوبين، يطوى بساط أطوار القامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأنهم وصفها، والقامات لا تقيد ولا تحبس بترقيها منها وانتزاعه صفوها وخالصها، لأنه حيث اشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها، والقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية، فالزهد بصفه عن الرغبة، والتوكل بصفه عن قلة

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

(٢) سورة الشورى الآية ١٢.

(٣) سورة الشورى الآية ١٣.

الاعتماد التولد عن جهل النفس، والرضى بصفية عن ضربان، عرق
للمنازعة، والمنازعة لبقاء جمود النفس ما اشرق عليها شمس المحبة الخاصة،
هبقى ظلمتها وجمودها.

فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها، فماداً بسزغ
الزهد منه من الرغبة، ورغبة الحب أحرقت رغبته، وماداً يصفى منه
التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته، وماداً يسكن فيه الرضى من
عروق المنازعة، والمنازعة ممن لم تسلم كلية.

قال الروذباري، ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة.

وقال أبو يزيد، من قتلته محبته فحيتته رؤيته، ومن قتلته عشقه
فديته منادته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت
أحمد ابن علي بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علوية يقول، قال أبو زيد
ذلك، فإذا التقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين وطى بساط الأطوار لخواص
المحبين وهم المحبوبون، تخلف عن همهم المقامات، وربما كانت المقامات
على مدارج طبقات السموات، وهي مواطن من يتعثر في أدبال بقاياها.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص، إلى ماذا أدى بك التصوف؟ قال، إلى
التوكل. فقال، تسعى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل
برؤية الوكيل.

فالنفس إذا تحركت بصفاتها متلففة من دائرة الزهد يردّها الزاهد
إلى الدائرة بزهد، فالتوكل إذا تحركت نفسه يزدها بتوكله، والراضى
يردها برضاه، وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة
العلم، وفي ذلك تتسم روح القرب من بعيد، وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم،
وبحسبه الاجتهاد والكسب.

ومن اخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالثبوت
 بأنوار فضل الحق، ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف
 محمية عن الطوارق والصروف، لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلبه فالزهد
 والتوكل والرضى كائن فيه وهو غير كائن فيها، على معنى أنه كيف
 تقلب كان زاهدا وإن رغب، لأنه بالحق لا بنفسه، وإن روي منه الالتفات إلى
 الأسباب فهو متوكل، وإن وجد منه الكراهة فهو راض، لأن كراهته
 لنفسه، ونفسه للحق، وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها
 مطهرة موهوبة محمولة ملطوفة بها، صار عين الناء دواءه، وصار الإعلال
 شفاءه، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضى، أو صار
 مطلوبه من الله بمووب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضى.

قالت رابعة: محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه.

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك، ولا
 يبقى لك منك شيء.

وقال أبو الحسين الوراق: السرور بالله من شدة المحبة له، والمحبة في
 القلب نار تحرق كل دنس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبين لشدة من صبر الزاهدين، وأعجبا
 كيف يصبر الإنسان عن حبيبته.

وقال بعضهم: من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو
 كذاب، ومن ادعى محبة الحبة من غير إتفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادعى
 حب رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب. وكانت رابعة تنشد:

تعصى الإله وأنت تطهر حبه	هذا لعمرى في الفعّال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته	إن للحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات، فمن ادعى حالا يعتبر حبه، ومن ادعى محبة تعتبر توبته، فإن التوبة قالب روح الحب، وهذا الروح قيامه بهذا القلب، والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب» فهو مع الله تعالى.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب، بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في العيب ولم يكن هذا بالمحبة، فإذا خرج الحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة. سئل الجنيد عن المحبة قال: دخول صفات المحبوب على البطل من صفات الحب.

قيل: هذا على معنى قوله تعالى: «فإذا أحببتك كنت له سمعا وبصرا» وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت، والرابطة متصلة متأكدة، وكمال وصف المحبة أزال اللوانع من الحب، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفًا على الحب الخالص من موانع قاذحة في صدق الحب، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد جهده، فيعود الحب بفوائده اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنا من أهوى ومن أهوى لنا نحن روحان حللنا بدننا
هـ إذا أبصرتني أبصرتـه وإذا أبصرتـه أبصرتـنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحيائه بحسن توفيقه وتأييده، وإذا منح نزاهة للنفس وطهارتها لم جنب روحه بجانب

المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه، وبباعت الشوق تستقر الصفات للوهوبة للحقيقة رتبة الوصول عند المحب، ولولا باعث الشوق رجع القهقري، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه.

ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه لو تخيل له غير هذا القدر فهو متعرض للذهب البصاري في اللاهوت والناسوت.

وأشارت الشيوخ في الاستغفار والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا، وأمنت اللوث الوجودي من بقاء صفات النفس، وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعثها.

سئل الشبلي عن المحبة فقال: كأس لها وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت.

وقيل: للمحبة ظاهر وباطن، ظاهرها اتباع رضى المحبوب، وباطنها أن يكون مفتونا بالمحبيب عن كل شيء، ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه.

فمن الأحوال السبية في المحبة الشوق، ولا يكون الحب إلا مشتاقا أبدا، إن أمر الحق تعالى لا نهاية له، فما من حال يبلغها الحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أو في منها واتم.

حزني كحسنك لا لنا أمـد ينهي إليه ولا لنا أمـد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس مكسبه، وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين.

قال أحمد بن أبي الجولقي: دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيتَه يبكي، فقلت ما يبكيك رحمك الله؟ قال: وبك يا أحمد، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقلامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وأشرف الجليل جل جلالته عليهم يقول: بعيني من قلند بكلامي واستراح إلى مناجاتي، وإنى مطلع عليهم في خلواتهم، اسمع أمتينهم، وأرى بكاءهم، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم، هل أخبركم مخبر أن حبيباً يعذب أحبابه بالنار، فكيف يجعل بي أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تعلقوا إلى، في حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياض نفسي.

وهذه أحوال قوم من المحبين لقيموا مقام الشوق، والشوق في المحبة كالزهد من التوبة، إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(١). قال شوقاً واستهانة بمن وراءه ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَىٰ عَلَىٰ أَثَرِي﴾^(٢) من شوقه إلى مكاملة الله، ورمى بالألواح لما فاته من وقته.

وقال أبو عثمان: الشوق ثمرة المحبة، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ رَبِّهِ﴾^(٣) تقريبه للمشتاقين معناه إنني أعلم أن شوقكم إلى غالب، وأنا أجلت للقاتكم أجلاً وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاققون إليه.

(١) سورة طه، الآية ٨٤.

(٢) سورة طه، الآية ٨٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥.

وقال ذو النون، الشوق أعلى الدرجات وأعلى اللقائات، فإذا بلغها الإنسان استبطا الموت شوقا إلى ربه، ورجاء للاقائه والنظر إليه.

وعندى أن الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت، والله تعالى يكشف أهل وده بعطايا يجنونها علما، ويطلبونها ذوقا، فكنكك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى، كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَتُسَكِّي وَتَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لله للمأجاة والمحبة، فتمتلى عينه من النقد، ثم يكشفه من النج والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت.

وانكر بعضهم مقام الشوق وقال إنما يكون الشوق لغائب، ومتى يغيب المحبيب عن المحبيب حتى يشتاق؟

ولهذا سئل الأبطاكي عن الشوق فقال، إنما يشتاق إلى الغائب وما شئت عنه منذ وجدته.

وانكار الشوق على الإطلاق لا يرى له وجه، لأن رتب العطايا والنج من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية. فكيف ينكر الشوق من الحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب، فكيف يمنح حال الشوق والأمر هكذا.

ووجه آخر، أن الإنسان لا يد له من أمور يردّها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته، وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق، ولا نعتى بالشوق إلى مطالبة تنبعث من

الباطن إلى الأولى والأعلى من انصبية القرب هذه الطائفة كانت في المحبين،
 فالشوق إذا كانت لا وجه لإنكاره، وقد قال قوم: شوق الشاهدة واللقاء أشد
 من شوق البعد والغيوبة، فيكون في حال الغيبة مشتاقا إلى اللقاء، ويكون
 في حال اللقاء والشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وأفضاله، وهذا
 هو الذي أراه واختاره.

وقال فارس: قلوب المشتاقين منورة بتور الله، فإذا تحركت اشتياقا
 أضاء النور ما بين المشرق والمغرب، فيعرضهم الله على اللانكة فيقول: هؤلاء
 المشتاقون إلى أشهدكم ألي إليهم أشوق.

وقال أبو يزيد: لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من
 الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

سئل ابن عطاء عن الشوق فقال: هو احتراق الحشا، وتلهب القلوب،
 وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب.

سئل بعضهم: هل الشوق أعلى أم المحبة، فقال: المحبة، لأن الشوق يتولد
 منها، فلا مشتاق إلا من غلبة الحب، فالحب أصل، والشوق فرع.

وقال النصر آبادي: للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق، ومن
 دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له شر ولا قرار.

ومنها الأنس، وقد سئل الجنيد عن الأنس فقال: ارتفاع الحشمة مع
 وجود الهيبة.

وسئل ذو النون عن الأنس فقال: هو انبساط الحب إلى المحبوب.

قيل: معناه قول الخليل (أرني كيف تحيي الموتى) وقول موسى (أرني
 أنظر إليك) وأنشد لرويم:

شعنت قلبي بما لديك فلا
أنستني منك بالوداد فقد
ذكرت لي مؤنس يعارضني
وحيثما كنت يا مدى همسي
ينفك طول الحياة عن فكر
لوحشتني من جميع ذا البشر
بوعنني عنك منك بالطفر
فأنت متى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز: ليكن
أنسك بالله، وانقطاعك إليه، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا في وحدتهم
أشد استئناسا من الناس في كثرتهم، وتوحش ما يكون الناس أنس ما
يكونون، وأنس ما يكون الناس توحش ما يكونون.

قال الواسطي: لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان
مكلها.

وقال أبو الحسين الوراق: لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم، لأن
كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا لله تعالى فإنك لا تتزايد
به أنسا إلا ازدادت منه هبة وتعظيما.

قالت رابعة: كل مطيع مستأنس، وأنشدت:

ولقد جعلت لك في الفؤاد محذني وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤنس وحبس قلبي في الفؤاد أنيسي
وقال مالك بن دينا (من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين
فقد قل علمه، وعمى قلبه، وضع عمره).

فيل لبعضهم: من معك في دار؟ قال: الله تعالى معي، ولا يستوحش من
أنس بريه.

وقال الخراز: الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب.

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال: جدد لهم الود
في كل طرفة بدوام الاتصال، وأولهم في كنفه بحقائق السكون إليه، حتى
أنت قلوبهم، وحننت لرواحهم شوقاً، وكان الحب والشوق منهم إشارة من
الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بآله، فذهبت مناسهم،
وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم.

ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه عن بعض ما
أعد لهم من القسيم وحدانيته ودوام أزليته، وسابق علمه، وكان نصيبهم
معرفة من به، وفراغ همهم عليه، واجتماع أهوائهم فيه، فصار يحسد هم من
عبيدهم العموم أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم.

وانشد في معناه:

كأنت لقلبي أهواء مفرقة	فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائى
فصار يحسدني من كنت أحسده	وصرت مولى الورى مذ صرت مولانى
تركبت للناس دنياهم ودينهم	شغلا بذكرك يا دينى ودنياى

وقد يكون من الأنس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه، وسائر
أبواب القربات، وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحه منه، ولكن
ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين.

والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن، وكنسه بصدق الزهد،
وكمال التقوى، وقطع الأسباب والعلاقات، ومحو الخواطر والهواجس،
وحقيقته عندي كس الوجود بثقل لائح العظمة، وانتشار الروح في
ميادين الفتوح، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب، فيجمعه به عن
الهيبة، وفي الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس.

وهذا الذي وصفناه من انس الذات وهيبة الذات يكون في مقام البقاء
بعد العبور على ممر الفناء، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود

الفناء، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال، وذلك مقام التلوين، وما ذكرناه بعد الفناء في مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات. ومن الأنس خضوع النفس المطمئنة، ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح.

ومنها القرب. قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿واسجد والقرب﴾.

وقد ورد «أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده» فالساجد إذا ألقى طعم السجود بقرب، لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة القرب.

قال بعضهم، إني لا أجد الحضور فأقول يا الله أو يا رب فأجد ذلك على أقل من الجبال. قيل، ولم؟ قال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه، وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات.

وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب، ولكنه مشعر بمحو، ومؤذن بسكر، يكون ذلك إن غابت نفسه في نور روحه، لعلبة سكره، وقوة محوه، فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس، والنفس من الروح، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه، فيقول يا الله ويا رب بلسان النفس المطمئنة، العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها.

والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الأول، لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتوح، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار، وحظ القرب لا يزال يتوهر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

وقال الجنيد: إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك.

وقال أبو يعقوب السوسى: ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريباً حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب. وقد قال قائلهم:

فقد تحققتك في السر	فناجناك لسنا
فاجتمعنا لمعان	وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعم	ظلم عن لحظ عياني
فقد صيرك الوجد	من الأحشاء داني

قال ذو النون: ما ازداد أحد من الله قرابة إلا ازداد هيبة.

وقال سهل: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء.

وقال النصر اباضى: باتباع السنة تنال العرفه، وبإداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة.

ومنها الحياء، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص، فأما الوصف العام فها أمر به رسول الله ﷺ في قوله: «استحبوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الأحره ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال، وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: إني اغتسل في البيت المظلم فانطوى حياء من الله.

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي بن صالح يقول سمعت محمد بن عبيدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول: قال لي سري: احفظ عني ما أقول لك: عن الحياء والأنس يطوفان بالقلب، فإذا وجداه فيه الزهد والورع حصا، وإلا رحلا.

والحياء إطراق الروح إجلالاً لعظم الجلال، والأنس التلذذ الروح بكمال الجمال، فإذا اجتمعنا فهو الغاية في النسي والنهاية في العطاء.

وأنشد شيخ الإسلام،

اشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله
نسوت في إدباره، والعيش في إقباله وأصد عنه إذا بدا، وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء: من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فهما يتكلم به فهو مستخرج.

وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك.

وقال ابن عطاء: العلم الأكبر هيبة والحياء، فإن ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه.

وقال أبو سليمان: إن العباد عملوا على أربع درجات: على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء، لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال مستحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم.

وقال بعضهم: العائب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دتما عند نظر الله إليهم.

ومنها الاتصال.

قال النوري: الاتصال مكاشفت القلوب، ومشاهدة الأسرار.

وقال بعضهم: الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول.

وقال بعضهم: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاظر لغير صانعه.

وقال سهل بن عبد الله: حرركوا بالبلاء فتحرركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

وقال يحيى بن معاذ الرزقي: العمال أربعة، تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل، فالتائب محبوب بتوبته، والزاهد محبوب بزهده، والمشتاق محبوب بجاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

وقال أبو سعيد القرشي: الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبداً، التصل الذي بجهده يتصل، وكلما دنا انقطع. وكان هذا الذي ذكره حال المرید والراد، لكون أحدهما مباداً بالكشوف، ويكون الآخر مردود إلى الاجتهاد.

وقال أبو يزيد: الواصلون في ثلاثة أحرف: همهم لله، وشغلهم في الله، ورجوعهم إلى الله.

وقال السيارى: الوصول مقام جليل، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق، وقرب إليه البعيد.

وقال الجنيد: الواصل هو الحاصل عند ربه.

وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم فلو بهم فهم محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبداً.

وقال ذو النون، ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد
فرجع عنه

واعلم أن الاتصال والواصله لشار إليه الشيوخ. وكل من وصل إلى
صفو اليقين بطريق النوق والوجدان فهو من رتبة الوصول، ثم يتفاوتون،
فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلى، فيفنى فعله وفعل
غيره، لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاحتيار، وهذه
رتبة في الوصول.

ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من
مطالعة الجمال والجلال، وهذا تجلى طريق الصمات، وهو رتبة في الوصول.

ومنهم من ترقى لتمام الفناء، مشتملا على باطنه أنوار اليقين
والشاهدة، مغيبا في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص
القربين، وهذا تمام رتبة في الوصول.

وفوق هذا حق اليقين، ويكون ذلك في الدنيا لخواص لح، وهو سريان
نور الشاهدة في كلية العبد، حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى
قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه
الأحوال الشريفة أنه بعد في أول النزل، فابن الوصول، هيئات منازل طريق
الوصول لا تقطع أبدا الآباد في عمر الآخرة الأبدى، فكيف في العمر القصير
الدنيوى.

ومنها القبض والبسط، وهما حالان شريفان. قال الله تعالى: ﴿... وَاللَّهُ
يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ...﴾^(١) وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات
القبض والبسط، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة.

والإشارة تقنع الأهل. وأحببت أن أشبع الكلام فيها لعله يتشوق إلى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم، لا يكونان قبله ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة. فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك، وإنما هو هم يحترقه هيئته قبضا، واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يطنه بسطا.

والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، وما دامت صفة الإمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز، والنشاط والهم وهج ساحور النفس، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطي: يقبضك عما لك ويبسطك فيما له.

وقال النوري: يقبضك بإياك ويبسطك لإيائه.

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته، والنفس ما دامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجاب لا يقيده الحال ولا يتصرف

فيه، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط ما دام متحلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب، ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النوراني الذي هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

قال فارس، أولا القبض ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقع في الوجود، فأما مع الفناء والبقاء فلا.

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط، وذلك أن الولد من الله تعالى، يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا، فتسرق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها، فإذا وصل إلى الولد إلى النفس طغت بطبعها، وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا، فتقابل بالقبض عقوبة، ويكمل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفاتها، ولو تادبت النفس وعدلت ولم تجر بالطمعيات تارة وبالعصيان أخرى، ما وجد صاحب القلب القبض، وما دام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذي يسد باب القبض ملتقى من قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾^(١)

فوارد الفرح ما دام موقوفها على الروح والقلب لا يكشف ولا يستوحب صاحبه القبض، لا سيما إذا لطف بالفرح بالولاد بالإيواء إلى الله، وإذا لم يلتج بالإيواء إلى الله تعالى، تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح، وهو الفرح بما أتى الممنوع منه، فمن ذلك القبض في بعض الأحيان، وهذا من الطلح الذنوب الوجهية للقبض، وفي النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض، ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط، ولا صاحب الابس والهيبة، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يتعدمان.

وأما القبض والبسط فينعتزمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب. وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف بسببهما، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم علم الحال ولا علم المقام.

ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط، كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك لن استقام قلبه، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما نفسه مطمئنة، لا تنقدح من جوهرها نار توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط، وربما صار لئلا هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه، فتكون نفسه مطمئنة بطبع القلب فيجري القبض والبسط في نفسه مطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط، لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح، مستقر في دعة القرب، فلا قبض ولا بسط.

ومنها الفناء والبقاء.

قد قيل: الفناء أن يفنى عن المحفوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يعنى عن الأشياء كلها شغلا بمن هي فيه.

وقد قال عامر بن عبد الله: لا لبالي امرأة رايت أم حانظا.

ويكون محفوظا فيما لله عليه، مصروفا عن جميع الخافات، والبقاء بعقبه، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى.

وقيل: الباقي أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فيكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفته، فكان قانيا عن المخافات، باقيا في الموافقات. وعندى أن هذا الذي ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح، وليس من الفناء والبقاء في شيء.

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نترأى لله في ذلك المكان.

وقيل: الفناء وهو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل.

وقال الخراز: الفناء هو التلاشي بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.
وقال الجنيد: الفناء استعجام الكل عن توصافك، واشتغال الكل منك بكليته.

وقال إبراهيم بن شهبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من الغاليط والزندقة.
وسئل الخراز: ما علامة الفاني؟ قال: علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقال أبو سعيد الخراز: أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء، وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.

واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة، فبعضها إشارة إلى فناء الخلافات وبقاء الموافقات، وهذا يقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد، وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للغمومة وبقاء الأوصاف المحمودة، وهذا يقتضيه تزكية النفس.

وبعضها إشارة إلى حقيقة المناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن المناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه

وتعالى على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن.

فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق، ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه، وبقيض الله تعالى له من بطعمه، ومن يسقيه فكيف شاء وأحب، ولهذا لعمري فناء، لأنه هنى عن نفسه وعن الغير، نظراً إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله.

والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس. وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة العناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري وقلت له: هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفي؟ وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفي، فقال لي: هذا يكون في مقام الفناء، ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفي أم لا.

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوحيته أسطوانة في الجامع فأنزعج لهدتها أهل السوق، فدخلوا المسجد فراءوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنياً.

ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون متحققاً بالفناء ومعناه روحاً وقلباً، ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل، ويكون من أقسام

الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن في كليات
أموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه.

فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فإن، وصاحب الانتظار لإذن الحق
في كليات أموره راجع إلى الله بباطنه في جزئياتها فإن، ومن ملكه الله تعالى
اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء ولزاد لا منتظرا للفعل ولا
منتظرا للإذن، هو باق، والباقي في مقام لا يحسبه الحق عن الخلق، ولا الحق
عن الحق، والهاني محبوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب
والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وفاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال،
وخرج من القلب فصار مع مقبله لا مع قلبه.

الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إحداة قال: أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال: حدثنا محمد ابن إبراهيم قال: حدثنا أبو مسلم الكشي قال: حدثنا مسور بن عيسى قال: حدثنا القاسم بن يحيى قال: حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم ما لم تعلم، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه».

وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم. فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى، وتعلموا العلم لله تعالى، وعملوا بما علموا نوضح تقواهم، فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار، وترسخ قديمهم في العلم.

قال أبو سعيد الخراز: أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والشاهدة لقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(١)

وقال أبو بكر الواسطي: الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب العيب، وفي سر السر، فعرفهم ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاصوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فأنكشف لهم من مدخور الخزائن والخزونات تحت كل حرف وآية من المهم وعجائب البص، فاستخرجوا الدرر والجواهر، وانطلقوا بالحكمة.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ فيما رواه سميان بن عيينه عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أنه قال: «إن من العلم كهيئة الكون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله.

أحبرنا أبو زرعة قال: أنا أبو بكر بن خلف قال: حدثنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت النصراني يذوق يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول: هي أسرار الله تعالى يبيدها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص.

وقال أبو سعيد الحرّاز: للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية، وهي من العلم بالمجهول.

فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون.

وقال قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: «بى ينطق» وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر ﴿...آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِّن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾^(١)

فما تداولته أسنتهم من الكلمات تفهيمًا من بعضهم للبعض، وإشارة منهم أحوال يجدونها، ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم: الجمع والتفرقة.

فيل: أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢) فهذا جمع، ثم فرق فقال ﴿وَأَلْمَلِكُكَّةُ وَأَوَّلُوا أَلْعِلْمِ﴾^(٣)

(١) سورة الكهف: الآية ٦٥

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.

وقوله تعالى: ﴿أَمِنَّا بِاللّهِ﴾ جمع، ثم فرق بقوله ﴿وَمَا أَنزَلَ إِلَيْنَا﴾
والجمع أصل والتفرقة فرع، فكل جمع بلا تفرقة زائدة، وكل تفرقة بلا
جمع تعطيل.

وقال الجنيّد: القرب بالوجد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة.

وقيل، جمعهم في المعرفة وفرقهم في الاحوال. والجمع اتصال لا يشاهد
صاحبه إلا الحق، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهود لمن شاء
بالبينة. وعباراتهم في ذلك كثيرة.

والقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، وأشاروا إلى
الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة.

ويقولون، فلان في عين الجمع، يحنون استيلاء مراقبة الحق على
باطنه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة، فصحة الجمع
بالتفرقة، وصحة التفرقة بالجمع. فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم
بالله، والتفرقة من العلم بأمر الله ولا بد منهما جميعا.

قال المزين: الجمع عين المناء بالله، والتفرقة العبودية متصل بعضها
بالبعض.

وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التوحيد،
وعطلوا الاكتساب، فتزندقوا، وإنما الجمع حكم الروح، والتفرقة حكم
القالب، وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك
جمعت، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة.

وقيل، جمعهم بنقته، وفرقهم في صفاته.

وقد يربطون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظر إلى أعماله فهو في التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع.

ومجموع الإشارات ينبغي أن الكون يفرق، والكون يجمع، فمن أفرد الكون جمع، ومن نظر إلى الكون فرق، فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد، فإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفاء فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال، رؤية الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال، أفنى موسى عن موسى، فلم يكن لموسى خير من موسى، ثم كلم فكان للكلم والكلم هو، وكيف كان يطبق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع. ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع. ثم انشد القائل متمثلا.

وبدأه من بعدما اندمل الهوى	بهرق تالق موهنا أعانه
ببلى كحاشية الرداء وبونه	صعب الذرى متمتع أركانه
فبدأ لينظر كيف لاح فلم يطلق	نظرا إليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتعلت عليه ضلوعه	ولاء ما سمحت به أحفانه

ومنها قولهم، التجلى والاستتار.

قال الجيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلى، والتذويب للأولياء وهو الشاهدة. وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس، ومنها الاستتار، وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب.

ومنها التجلى، ثم التجلى قد يكون طريق الأفعال، وقد يكون بطريق الصفات، وقد يكون بطريق الذات، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع

الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم، فأما لهم فالاتهم به يرجعون إلى مصالح النفوس، وأما لغيرهم فلأنه لو لا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقه في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم، علامة تجلى الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا باظر إجلال.

وقال بعضهم، التجلى رفيع حجية البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب.

ومنها التجريد والتفريد. الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله، لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما مكوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا، والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به، بل يرى منه الله عليه.

فالتجريد ينفي الأغيار، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن مكسبه.

ومنها الوجد والتواجد والوجود. فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا، وبغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه، ينظر منها إلى الله تعالى.

والتواجد استجلاب الوجد بالذكور والتفكير. والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان، فلا وجد مع الوجدان، ولا خبر مع العيان، فالوجد بعرضية الزوال، والوجود ثابت بثبوت الجبال، وقد قيل:

قد كان بطريني وجدى فأفعلنى	عن رؤية الوجد من في الوجد موجود
والوجد بطرب من في الوجد راحته	والوجد عن حصور الحق مفقود

ومنها العلبة. الغلبة وجد متلاحق، فالوجد كالبرق يبدو، والغلبة
كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز، فالوجد ينطفئ سريعا، والعلبة
تبقى للأسرار حرازا منها.

ومنها السامرة، وهي تفرد الأرواح بخفى متاجاتها ولطيف ماسحاتها في
سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها، فتلتذ بها دون القلب.

ومنها السكر والصحو، فالسكر استيلاء سلطان الحال، والصحو العود إلى
ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال.

قال محمد بن خفيف السكر غلبان القلب عند معارضات السكر
المحبوب.

وقال الواسطي، مقامات الوجد أربعة: الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم
الصحو، كمن سمع بالبحر ثم دنا منه، ثم دخل فيه، ثم أخذته الأمواج،
فعلى هذا من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن
عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو
للمكاشفين بحقائق الغيوب.

ومنها المحو والإثبات. المحو بإزالة أوصاف النفوس، والإثبات بما أثير
عليهم من آثار الحب كنفوس. أو المحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى
نفسه وما منه، والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به، فهو بالحق لا
بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه.

قال ابن عطاء: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

ومنها علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين ما كان
من طريق النظر والاستدلال، وعين اليقين ما كان من طريق الكشف
والسوال، وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود
رائد الوصال.

قال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه، وعلم اليقين هو العلم الذي أودعه الله الأسرار، والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين مكان علما بشبهة، فإذا انضم إليه اليقين مكان علما بلا شبهة، وحق اليقين هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين، وعين اليقين.

وقال الجنيد: حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد الرئيلت مشاهدة عيان، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لعيالك». قال: الله ورسوله.

وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد.

وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق، فالاسم والرسم للعموم، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد ﷺ.

ومنها الوقت، والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته، فإنه كالسيف يعضى الوقت بحكمه ويقطع، وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا يكسه فيتصرف به فيكون حكمه، يقال فلان يحكم الوقت يعنى مأخوذا عما منه بما للحق.

ومنها الغيبة والشهود. فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة، ووقتاً بوصف المشاهدة، فما دام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاصر، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غايب، وقد يعنون بالغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام الفناء.

ومنها التوق والشرب والرى. فالذوق إيمان، والشرب علم، والرى حال. هالذوق لأرباب البوارى، والشرب لأرباب الطوابع واللوامع، والرى لأرباب الأحوال، وذلك أن الأحوال هى التى تستقر، فما لم يستقر فليس بحال، وإنما هى لوامع وطوابع. وقيل الحال لا تستقر لأنها تحول، فإذا استقرت تكون مقاماً.

ومنها المحاضرة والكاشفة والشاهدة. فالمحاضرة لأرباب التلوين، والشاهدة لأرباب التمكين، والكاشفة بينهما إلى أن تستقر. فالشاهدة والمحاضرة لأهل العلم، والكاشفة لأهل العين، والشاهدة لأهل الحق أى حق اليقين.

ومنها الطوارق والبوارى والبنات والواقع والقادح والطوابع واللوامع واللوامع وهذه كلها الماخذ متقاربة المعنى، ويمكن بسط القول فيها، ويكون حاصل ذلك راجعاً إلى معنى واحد يكثر بالمعبرة فلا فائدة به. والقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها.

ومنها التلوين والتمكين. هالتلوين لأرباب القلوب، لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلص إلى الصفات، والصفات تعدد بتعدد جهاتها، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات.

وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرقوا حجب القلوب، وبأشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التعبير في الذات، إذ اجلب ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين.

فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم، لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها
وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكّن، لأن
جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الإنسانية، ونبوت القدم في التمكّن
ككشف حق الحقيقة، وليس العنى بالتمكّن أن لا يكون للعبد تغير فإنه
بشر، وإنما العنى فيه أن ما مكشف من الحقيقة لا يتواري عنه أبداً ولا
يتناقص بل يزيد، وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور
صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال، ويكون ذبونه على
مستقر الإيمان، وتلوينه في زوائد الأحوال.

ومنها النفس. ويقال النفس للمنتهى، والوقت للمبتدى، والحال
للمتوسط، فكانه إشارة منهم إلى أن المبتدى بطرقه من الله تعالى طارقي لا
يستقر، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه، والمنتهى صاحب نفس
متمكن من الحال، لا يتناوب عليه الحال بالغبية والحضور، بل تكون الواجيد
مقرونة بأنفاسه، مقيمة لا تتناوب عليه، وهذه كلها أحوال لأربابها، ولهم
منها ذوق وشرب، والله ينفع ببركتهم آمين.

الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزيني قال أخبرتنا كريمة الروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني قال لنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري قال حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية» وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

النية أول العمل، وبحسبها يكون العمل، وأهم ما للمريد في ابتداء أمره في طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية، ويتزيا بزيهم، ويجالس طائفتهم لله تعالى، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله ووقته.

وقد ورد «الهاجر من هجر ما نهاه الله عنه».

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ مَخْرُجٌ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾^(١)

فالمريد ينبغي أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالنزل، وإن أدركه الوت قبل الوصول إلى نهايات القوم فاحره على الله، وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغلي عن جعفر الخليلي قال سمعت الجنيدي يقول: أكثر العوائق الحوائل والموانع من فساد الابتلاء.

فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية، وإحكام النية تنزيهاً من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: أعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك.

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: اخلص النية في أعمالك بكفك قليل من العمل.

ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية.

قال سهل بن عبد الله التستري: أول ما يؤمر به الريد المبتدئ التبري من الحركات الذمومة، ثم النقل إلى الحركات الحمودة، ثم التفرد لأمر الله تعالى، ثم التوقف في الرشاد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم الناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ويكون الرضا والتسليم مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالعرفه، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة، وهذا مقام حملة العرش، وليس بعده مقام.

هذا من كلام سهل جمع فيه ما في البداية والنهاية.

ومتى تمسك الريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع، وقطع النظر عن الخلق. فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لوضع نظرهم إلى الخلق.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغراً» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق، والخروج منهم، وترك التقيد بعاداتهم.

قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصديق، فإن الله تعالى مع الصديقين.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «الصديق يهدي إلى البر».

ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه، فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس.

وانفع شيء للمريد معرفة النفس، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب العضول والزيادته أو عليه من الهوى بقية.

قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك، تصبح لا تهمل الله بمعصية، وتمسى ولا تهمل الله بمعصية. فإذا أحكم الزهد والتقوى، انكشفت له النفس، وخرجت من حجبها، وعلم طريق حركتها، وخفى شهواتها، ودسائسها وتلبساتها. ومن تمسك بالصديق فقد تمسك بالعروة الوثقى.

قال ذو النون: لله تعالى في أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصديق.

ونقل في معنى الصديق أن عابداً من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه، فقال اجعلوا لي ماء في الخلاء لتنظف به، ثم صعد على موضع في القصر فرمى بنفسه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن ألزم عبيدي، قال فلزمه ووضعته على الأرض وضعاً رفيعاً، فقبل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان على من خالف هواه، وبذل نفسه لله تعالى.

وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى، حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله، ولا يأكل إلا لله، ولا يشرب إلا لله، ولا ينام إلا لله، لأن هذه كلها لرفاق أدخلها على النفس وكانت لله لا تستعصر النفس، وتجهب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص، وإذا دخل في شيء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه.

وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الإلخ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أتر من الجيفة».

وقبل، كان ألم يقول، طيبوا كفى بمسك فإن ذابتا بصفحتي وبقبل يدي.

وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم.

المريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى. وقد رأينا من أصحاب شيوخنا من كان ينوي عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا أكل هذه اللقمة لله تعالى.

ولا ينفع القول إلا لم تكن النية في القلب، لأن النية عمل القلب، وإنما اللسان ترجمان، فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لا تكون نية.

وبادى رجل امراته وكان يسرح شعره فقال: هات للنرى، أراد الميل ليفرق شعره، فقالت له امراته: اجئ بالنرى والراة؟ فسكت ثم قال: نعم، فقال له من سمعه: سكبت وتوقفت عن الراة ثم قلت نعم، فقال: إني قلت لها هات للنرى بنية، فلما قالت والراة لم يكن لي في الراة نية فتوقفت حتى هبأ الله تعالى لي نية فقلت نعم.

وكل مبتدئ لا يحكم أساس بنيته، بمهاجرة الإلاف والأصدقاء
والعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بنيته. وقد قيل: من فلة الصدق
كثرت الخلاء، وأنفع ماله لزوم الصمت، وإن لا يطرق سمعه كلام الناس،
فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة.

وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا
يعرفه أبدا، فإن عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا. ويواطن أهل الابتداء
كأنهم تقبل كل نقش.

وربما استضر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس، ويستضر بفضول
النظر أيضا وفضول الشيء، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة، فينظر
ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق
الذي يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره، ثم يتقي موضع نظر الناس إليه
واحساسهم منه بالرعاية والاحترام، فإن علم الناس منه بذلك أضر عليه من
فعله. ولا يستحق فضول الشيء، فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع
خرج عن حد الضرورة جبر إلى الفضول، ثم يجر إلى تضییع الأصول.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول.

فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على
قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم، ومتى تعدى الضرورة تناعت عزائم
قلبه، وانحلت شيئا بعد شيء.

قال سهل بن عبد الله: من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخالق اضطرارا.

وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع، وبهلك مع الهالكين.

ولا ينبغي للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا، فإن معرفته لهم
سم قاتل. وقد ورد «الدنيا مبخوضة لله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى

«البار»، وما حبل من حبالها إلا كابتانها والطالبين لها والمحبين، فمن عرفهم اجتذب إليها شاء أو أبى.

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار، فإنه يدخل عليه منهم أثر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل للتعبين، وأن لأرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك.

وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان وحسب، ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأساً، فإنه اختيرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين، ورأينا الذين يقولون هذا القول، ويرون الفرائض دون الزيادة، والنوافل تحت القصور مع كونهم اصحاء في أحوالهم. فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفصيحة فبذلك يثبت قدمه في بدايته.

ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصاً لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه ومأربها، ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة، وإن اغتسل قريباً من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن.

قال رسول الله ﷺ، «يا أيها هريرة اغتسل للجمعة، ولو اشتريت الماء بعشائك».

وما من نبي إلا وقد أمره الله أن يفتسل للجمعة، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين، ويشغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلي الجمعة، ويجلس معتكفاً في الجامع إلى أن يصلي فرض العصر، وبقيسة النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع، حتى يرى ثمره ذلك يوم الجمعة.

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم الزيد لكل صادق، ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذي مضى، فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات، وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسامة النفس وقلة الانشراح، فلما صبح في الأسبوع، يعرف ذلك ويعتبره.

وينتقى جدا أن يلبس للناس الارتفاع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد، ففي لبس الارتفاع للناس هوى، وفي لبس الخشن رياء، فلا يلبس إلا لله.

بأنما أن سفیان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغیره فألبسه بنية للناس.

فلهعلم العبد ذلك وليمته.

ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه، فيحصط من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن، ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن، فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى.

وإنما اختار بعض الشايخ أن يديم للريد ذكر واحد ليجتمع لهم فيه. ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة، تفيد التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد، فإنما سئم في بعض الأحيان بصانع النفس على الذكر مصانعة، وينزل من التلاوة إلى الذكر، فإنه أخف على النفس.

وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد، فإنه عمل

ناقص، ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فإنه مضر وداء عضال، فيطالب نفسه أن تصير في تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه

فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس. وإن كان أعجمياً لا يعلم معنى القرآن يكون لرقابة حلية باطنه، فيشتغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس، فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب الشاهدة.

قال مالك، قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة.

فليتمسك المرء بهذه الأصول، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله، فبذلك خبات قدمه.

قال سهل، على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون الفتقار إلى الله.

فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير، ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم، وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا يتشبث بحركة، ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيراً قطعا، علمنا ذلك وتحققناه.

وقال سهل، من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه.

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم، لن هذه الدار؟ ثم رجع إلى نفسه وقال، مالي وهذا السؤال، وهل هذه إلا كلمة لا تعنيني، وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلبي لادبها، وإلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة.

هياالصدق نالوا ما نالوا، وبقوة الحرائم، عزّقم الرجال، بلعوا ما بلعوا.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأنعامي يقول سمعت الجنيد يقول: لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما ناله.

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها، والمنتهى عالم بها عامل بحقائقها. فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق.

قال أبو سعيد القرشي، الصادق الذي ظاهره مستقيم، وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس، وعلامته أن يجد الحلاوة في بعض الطاعة ولا يجدها في بعض، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح، وإذا اشتغل بحفظ النفس يحجب عن الأذكار.

والصديق الذي استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال لا يحجبه عن الله وعن الأكذار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام. والصديق يريد نفسه لله، وأقرب الأحوال إلى السبوة الصديقية.

وقال أبو يزيد: آخر نهايات الصديقين قول درجات الأنبياء.

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس، ووطئت بساط القلوب، ونفوسهم منقادة مطاوعة صالحة مع القلب، مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى، انطقلت فيهم نيران الهوى، وتخمر في بواطنهم صريح العلم، وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله ﷺ في حق أبي بكر رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فليتنظر إلى أبي بكر» إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم

الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

فأرباب النهايات ماتت أهويتهم، وخلصت أرواحهم.

قال يحيى بن معاذ، وقد سئل عن وصف العارف فقال: رجل معهم بائن منهم. وقال مرة: عبد كان قبان.

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقته، معوقين بتوقيات الاجل، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه، بهم يهذى وبهم يرشد، وبهم يجذب أهل الإرادة، كلامهم دواء، ونظرهم دواء، ظاهرهم محفوظ بالحكم، وباطنهم معمور بالعلم.

قال ذو النون، علامة العارف ثلاثة: لا يطمئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا يجعله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار معارم الله.

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا ديناً ازدادوا قرباً، وكلما ازدادوا حياء ازدادوا تواضعا وذلة ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات حارة رقيقة بالنفوس، لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشيء، ويهدي له شيء، لأنه مقهور تحت السياسة، مرحوم ملطوف به.

وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات ناسيا بالأنبياء، واختيارهم التقليل من الشهوات الدنيوية.

(١) سورة ق، الآية ٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطالبها ماضطتها، والزاهد فيها
يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشغل بسيده،
ولا يلتفت إليها.

واعلم ان المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى ايضا عن سياسة النفس
ومنعها الشهوات، وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر.

وقد غلط في هذا خلق، وظنوا ان المنتهى استغنى عن الريادات والمواعظ
ولا على قلبه من الاسترسال في تناول اللذات والشهوات، وهذا خطأ لا من حيث
انه يحجب العارف عن معرفته، ولكن بواقف مقام الزيد.

وقوم لما رأوا ان هذه الأشياء لا تؤثر فيهم فسوة ولا تورثهم حمية
ركنوا إليها واسترسلوا فيها، وفتحوا بآداء العرائض، واتسعوا في المأكول
والشرب، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال، وتقيد بنور الحال،
وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق.

ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر،
ويوقف نفسه مقام العبيد، كاحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم
وأنواع البر حتى ياماطة الأذى عن الطريق، ولا يستكبر ولا يستنكف ان يعود
في صور عوام المؤمنين من اظهار الإرادة بكل بر وصلة، فيتناول الشهوات
وقتا، رفقا بالنفس الطاهرة للزكاة للنفادة الطواعة لأنها أسيرته، ويمنعها
الشهوات وقتا، لأن في ذلك صلاحها.

واعبر هذا سواء بحال الصبي، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء
المراد وقتا ومنعه وقتا، انفسد طبيعته، لأن العجولة لا بد من قمعها بسياسة
العلم، وما دامت العجولة باقية لا بد من سياسة العلم، وهنا باب غامض دخله
في النهايات على المنتهى من ذلك دواخل، ووقع الركون، وانسد به باب الزيد

فإن انتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ وترك، ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحفظ. ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك، فتارة يأتي الأعمال كاحاد الصائدين، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس، وتارة يأخذ الحفظ والشهوات رفقا بالنفس، وتارة يتركها اعتقادا للنفس بحسن السياسة، فيكون في ذلك كله مختارا.

فمن ساكن ترك الحفظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية، ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكلية. والنهية شمل الطرفين، فإنه على غاية الاعتدال، والقف على الصراط بين الإفراط والتفريط.

فمن ردت إليه الأقسام في النهاية فأخذها زاهدا في الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار، وتارك الاختيار، الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال.

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار، فكذلك الزاهد في الزهد الأخذ من الدنيا ما سبق إليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا، واختياره من اختيار الله وبأخذه وقتا، واختياره من اختيار الله، وهكذا صومه النافلة، وصلاته النافلة، يأتي بها وقتا ويسمح للنفس وقتا، لأنه مختار صحيح في الاختيار في الحالتين، وهذا هو الصحيح. ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم بشاكل حال رسول الله ﷺ.

وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان، ويتناول الشهوات.

ولما قال الرجل إنني عزم أن لا أكل اللحم قال: «فإني أكل اللحم وأحبه ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لأطعمني» وذلك يدل على أن

رسول الله ﷺ كان مختاراً في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وكان يترك الأكل اختياراً.

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله ﷺ فعل كذا يقولون كان رسول الله ﷺ مشرعاً، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض، فإن الرخصة الوقوف على حد قوله، والعزيمة التأسي بفعله، وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص، وفعله لأرباب العزائم.

ثم إن المنتهى بحال حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق، فكل ما كان يعتمد عليه رسول الله ﷺ ينهى أن يعتمد، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقتدى به، وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك، فإن كان ليقتدى به فالمنتهى أيضاً مقتدى به ينهى أن يأتي بمثل ذلك، والصحيح الحق أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء، بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من هذيب الجبل.

قال الله تعالى خطاباً له: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١) لأنه بذلك ازداد استمداً من الحضرة الإلهية، وفرع بلب الكرم.

والنبي ﷺ مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى، غير مستغن عن ذلك.

ثم في ذلك سر غريب، وذلك أن رسول الله ﷺ برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به. وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف، أن النفوس الفت أنفاً كما أن الأرواح الفت أولاً،

ولكل روح مع نفسه تاليف خاص، والسكون والتاليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس.

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل لتصفية نفسه ونفس الاتباع، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة.

وهكذا انتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المعنى، فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل، ولا يترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة.

وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للخير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق، حتى تكون جلوته في حماية خلوته. ومن يترأى له أن أوقاته كلها خلوة، وأنه لا يحجب شيء، وأن أوقاته بالله والله، ولا يرى نقصاناً، لأن الله ما قطنه لحقيقة الزيد فهو صحيح في حاله غير أنه تحت قصور، لأنه ما تبه لسياسة الجبهة، وما عرف سر تملك الاختيار، وما وقف من البيان على البيضاء النقية.

وقد نقلت عن الشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه، فقد يسميها الإنسان وبنى عليها، والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى في أي كلمة يسميها، حتى يسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال: إذا اجتمعت المتفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز.

ومثل هذا القول يوهم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة، وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها، ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصاً، يعني أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال، وهذا صحيح، لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز، وتستوى الأحوال فيه، ولكن حظ

المريد يتغير ويحتاج إلى التمييز، وليس في هذا الكلام وأمثاله ما ينافي ما ذكرناه.

قيل لـ محمد بن الفضل، حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال، حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة.

وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة، فاستقامة نرباب النهاية على التمام. والعبد في ابتداء مأخوذ في الأعمال محبوب بها عن الأحوال، وفي التوسط محفوظ بالأحوال، فقد يحجب عن الأعمال.

وفي الانتهاء لا تحجبه الأعمال عن الأحوال، ولا الأحوال عن الأعمال، وذلك هو الفضل العظيم.

سئل الجنيد عن النهاية فقال، هي الرجوع إلى البداية.

وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال، معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم رد إلى النحر والجهل، وهو كالطفولية يكون جهل، ثم علم، ثم جهل. قال الله تعالى، ﴿...لَكِنِّي لَا يَعْلمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾^(١).

وقال بعضهم، اعرف الخلق بالله أنفسهم تحيرا فيه.

ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادئ الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون للمنتهى للراد للأخوذ في طريق المحبوبين، تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية، وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس، والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله، ساجدا بين يدي الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ، «سجد لك سواي وخيالي».

(١) سورة النحل، الآية ٧٠.

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١) والظلال والقوالب تسجد بسجود الأرواح، عند ذلك تسرى روح المحبة في جميع اجزائهم وأبعاضهم، فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا، فيحبهم الله تعالى، ويحبهم إلى خلقه، نعمة منه عليهم وفضلا، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النحيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزيني قال أخبرتنا مكريمة الرزوية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهني قال لنا عبد الله الفريري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال حدثني إسحاق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحِبُّوه، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

وبالله العون والعصمة والتوفيق.

★ ★ ★ ★

تم بحمد الله وعونه

كتاب هوارق المعارف للأمام السهروردي

وفي الختام نقول:

إِنَّمَا هِيَ كُلُّ مَا نَحْقُقُ مِنْ كِتَابِ التَّوْحِيدِ نَضَعُ نَصِيبَ أَعْيُنِنَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ فَمَا وَافَقَهُمَا أَخْتَنَاهُ وَمَا خَالَفَهُمَا عَلَقْنَاهُ عَلَيْهِ وَرَدَدْنَاهُ.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥	مقدمة التحقيق
١٥	الباب الأول: في ذكر منشأ علوم الصوفية
٢٥	الباب الثاني: في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع
٣٧	الباب الثالث: في بيان فصلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها
٥٦	الباب الرابع: في شرح حال الصوفية واختلاف طريقتهم
٦٤	الباب الخامس: في ماهية التصوف
٧٠	الباب السادس: في ذكر تسميتهم بهذا الاسم
٧٧	الباب السابع: في ذكر للتصوف والشتبه به
٨٣	الباب الثامن: في ذكر للامتنى وشرح حاله
٨٩	الباب التاسع: في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم
٩٤	الباب العاشر: في شرح رتبة للشبهة
١٠٤	الباب الحادي عشر: في شرح حال الخادم ومن يشتبه به
١٠٨	الباب الثاني عشر: في شرح خرقة للشيخ الصوفية
١١٧	الباب الثالث عشر: في فضيلة سكان لرباط
١٢١	الباب الرابع عشر: في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة
١٣٦	الباب الخامس عشر: في خصائص أهل الرباط والصوفية إلخ
١٣٣	الباب السادس عشر: في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم إلخ

- الباب السابع عشر: فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره إلخ ١٤٥
- الباب الثامن عشر: في القنوم من السفر وخول الرباط إلخ ١٥٤
- الباب التاسع عشر: في حال الصوفي للتسبب ١٦٣
- الباب العشرون: في ذكر من يأكل من الفتوح ١٦٩
- الباب الحادي والعشرون: في شرح حال للتجرد وللتأهل إلخ ١٧٩
- الباب الثاني والعشرون: في القول في السماع قبلًا وبعثًا ١٩٢
- الباب الثالث والعشرون: في القول في السماع رداً وإنكاراً ٢٠٧
- الباب الرابع والعشرون: في القول في السماع ترفهاً واستغناء ٢١٣
- الباب الخامس والعشرون: في القول في السماع تأدياً واعتناء ٢٢٠
- الباب السادس والعشرون: في خاصية الأربعينية إلخ ٢٢٧
- الباب السابع والعشرون: في ذكر فتوح الأربعينية ٢٣٣
- الباب الثامن والعشرون: في كيفية الدخول في الأربعينية ٢٤١
- الباب التاسع والعشرون: في أخلاق الصوفية وشرح الخلق ٢٤٨
- الباب الثلاثون: في تفصيل أخلاق الصوفية ٢٥٩
- الباب الحادي والثلاثون: في ذكر الأدب ومكانه من التصوف ٢٥٨
- الباب الثاني والثلاثون: في آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب ٢٠٣
- الباب الثالث والثلاثون: في آداب الطهارة ومقدماتها ٣١٠
- الباب الرابع والثلاثون: في آداب الوضوء وأسراره ٣١٥
- الباب الخامس والثلاثون: في آداب أهل الخصوص والصوفية إلخ ٣٢٠

- الباب السادس والثلاثون: فضيلة الصلاة وحكم شأنها ٣٢٥
- الباب السابع والثلاثون: في وصف صلاة أهل القرب ٣٣٢
- الباب الثامن والثلاثون: في ذكر آداب الصلاة وأسرارها ٣٤٦
- الباب التاسع والثلاثون: في فضل الصوم وحسن أثره ٣٥٦
- الباب الأربعون: في اختلاف أحوال الصوفاة بالصوم والإفطار ٣٦٠
- الباب الحادي والأربعون: في آداب الصوم ومهامه ٣٦٥
- الباب الثاني والأربعون: في ذكر الطعام وما فيه إلخ ٣٧١
- الباب الثالث والأربعون: في آداب الأكل ٣٧٧
- الباب الرابع والأربعون: في ذكر ألباسهم في اللباس إلخ ٣٨٤
- الباب الخامس والأربعون: في ذكر فضل قيام الليل ٣٩٢
- الباب السادس والأربعون: في ذكر الأسباب للعينه إلخ ٣٩٨
- الباب السابع والأربعون: في آداب الانتباه من النوم والعمل بالليل ٤٠٤
- الباب الثامن والأربعون: في تقسيم قيام الليل ٤١١
- الباب التاسع والأربعون: في استقبال النهار والأدب والعمل فيه ٤١٦
- الباب الخمسون: في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات ٤٢٨
- الباب الحادي والخمسون: في آداب الريد مع الشيخ ٤٤٤
- الباب الثاني والخمسون: في آداب الشيخ مع الريد وما يعتنقه إلخ ٤٥٨
- الباب الثالث والخمسون: في حقيقة الصحبة وما فيها إلخ ٤٦٦
- الباب الرابع والخمسون: في آداب حقوق الصحبة والأخوة إلخ ٤٧٦

٤٨٢	الباب الخامس والخمسون: في آداب الصحبة والأخوة
٤٩٠	الباب السادس والخمسون: في معرفة الإنسان نفسه إلخ
٥١٢	الباب السابع والخمسون: في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها
٥٢٢	الباب الثامن والخمسون: في شرح الحال والقام والفرق بينهما
٥٢٩	الباب التاسع والخمسون: في الإشارات إلى اللقائات إلخ
٥٤٢	الباب الستون: في ذكر إشارات الشايخ في اللقائات إلخ
٥٦١	الباب الحادي والستون: في ذكر الأحوال وشرحها
٥٨٤	الباب الثاني والستون: في شرح كلمات مشيرة إلخ
٥٩٢	الباب الثالث والستون: في ذكر شيء من الهدايا إلخ
٦٠٩	الفهرس